التميز بين العقيدة، والهرطقة، والرأي

دكتور جورج حبيب بباوي

التمييز بين
العقيدة، والهرطقة، والرأي

دكتور
جورج حبيب بباوي

دكتوراه الفلسفة – كمبردج

اسم الكتاب : التمييز بين العقيدة، والهرطقة، والرأي .
المؤلف : الدكتور جورج حبيب بباوي
الناشر : جذور للترجمة والنشر والتوزيع
الطبعة : يناير ٢٠١٦.
المطبعة : جي سي سنتر - مصر الجديدة
رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٨٧٤٤



جدول المحتويات

الفصل الأول

ما هي الهرطقة؟

ليست الهرطقةُ خطأً في التعبير أو في استخدام الكلمات بشكل غير واضح. و لم تكن الهرطقةُ في يوم من الأيام تعبيراً لُغو يا، وإنما الهرطقةُ مدرسةً فكريةً تفسرُ العقيدةَ بشكل خاطئ، مما يؤثر في العقائد الأخرى.

والذين حاولوا تصوير الأريوسية على أنها رفض لكلمة ''المساوي، أو الواحد مع الآب في الجوهر''، لم يقرأوا التاريخ الكنسي بدقة، و لم يعرفو ا أن تعبير الواحد، أو المساوي للآب في الجوهر، هو أحد المراحل المتأخرة في الصراع اللاهوتي الذي تبلور في المجمع المسكوني الأول ٣٢٥ م.

كما أن أريوس ينكر صر احةً إلوهية الابن، و قال إنه قابل للتغيير، وإنه أقل من الآب، ومخلوق، ومن طبيعة غير طبيعة الآب، وقد جرت مناقشة أريوس في أكثر من مجمع في الإسكندرية، و لم يُحكم عليه إلاَّ بعد أن قال صر احة بأنه ''كان هناك زمناً لم يكن فيه الابن موجوداً''، وهي عبارة تعني كلمة واحدة، وهي أن الابن مخلوقٌ.

في مرحلة تالية، تغيرت التعبيرات اللاهوتية، وكان تعبير أريوس الواضح ''إن الابن مُشابه للآب''، بمثابة تضليل للآباء. وبالتالي كانت عبارة ''الواحد مع الآب في الجوهر''، هي الاختبار الوحيد الذي يكشف عن صدق أو زيف إيمان المُتحدث .

فالواحد مع الآب في الجوهر تعني :

١- عدم وجود فاصل زمني بين الآب والابن.

٢- إن كل صفات الآب هي كل صفات الابن.

٣- إن إلوهية الآب هي ذاتها إلوهية الابن.

والنقاط الثلاثة لا يقبلها أريوس.

ومن تفسير الأريوسية للتجسد و الخلاص والنعمة و المعمودية، يتضح لنا أن الأريوسية ليست مجرد رفض لكلمة، وإنما هي مدرسةً فكريةً قائمةً بذاتها. فإذا لم يكن الابن من ذ ات جوهر الآب، لضاعت عقيدة التجسد، وعُدنا إلى اليهودية، وضاع التبني، أي الخلاص، وتحولت النعمة إلى جهد المخلوق في محاولة إدراك الخالق، وأصبح المسيح هو المُحتاج إلى الخلاص، ولَفَقَدت المعمودية قيمتها كقوة للخلاص.

إذن الهرطقةُ مدرسةُ، وليست مجرد كلمة. فهكذا تطورت النسطورية، من مقاومة لقب و الدة الإله إلى مقاومة اتحاد اللاهوت بالناسوت، و إلى إعادة تفسير عقيدة التجسد، وكهنوت المسيح، ووساطته، والنعمة، والإفخارستيا.

فكلما غيرت الهرطقة في عقيدة ما، اضطرت لأن تفسر باقي العقائد بشكل ينسجم و التغيير الذي قدمته. وطبعا هذا الكلام ينطبق على النسطورية، فهي عندما تنكر لقب والدة الإله، فهي تنكر اتحاد اللاهوت بالناسوت، وبدون الاتحاد لا يوجد تجسد، و بالتالي لا مجال للكلام على الإفخارستيا، وعندما تنكر الناسوت، فهي تنكر دور الوسيط، و الكاهن. ونفس القاعدة تنطبق على الأوطاخية، لأن إنكار بقاء ناسوت المسيح متحدا بلاهوته، يعني في النهاية عدم وجود الإفخارستيا في الكنيسة، وعدم صحة تسمية الكنيسة بـــ" جسد المسيح الواحد".

متى يصبح التعليم هرطقةً؟

يصبح التعليم هرطقةً عندما يُدان في مجمع مسكوني، أو مكاني، على مستوى الكنيسة، أو على مستوى الإيبارشية. لكن قرار الإدانة ليس مجرد قرار، وإنما يجب أن يتضمن تحديدا و اضحا لم اخرج عليه الهراطقة من تحديدات واضحة، وهذه التحديدات تتضمن إبراز ما حطَّمه الهراطقة من عقائد مستقرة في الكنيسة.

قرار الإدانة لا يصدر في غيبة من أصحاب التعليم، ولا يكون سريا. ويجب

أن يكون القرار محددا تحديدا واضحا، مستندا إلى نصوص الكتاب المقدس، وشهادات الآباءالمعتبرين أعمدة، و الممارسة الكنسية أو الليتورجية. أي نصوص الكتاب المقدس الواضحة التي تفسرها كتابات الآباء، وما تقوم به الكنيسة من ممارسات ليتورجية، لاسيما أسرار الكنيسة.

قبل ذلك، يبقى كل كلام صحيح حتى تثبت أخطائه على النحو الذي ذكرناه والامتناع عن تقديم الأدلة على الخطاء، أو عدم إعطاء المُخطئ حقه في الدفاع عن نفسه مهما كانت الأعذار، هو سلوك سياسي وحزبي، لامجال له في الكنيسة، فلم تحاول الكنيسة بحجة الخوف من الانقسام، أو بسبب وجود مراكز للقوى، أن تتأخر في شرح الإيمان والدفاع عنه، والحكم على المخطئين.

كان ميليتون أسقف أسيوط قد رُسم أسقفا للإسكندرية عوضا للقديس بطرس خاتم الشهداء. كان الانقسام رهيباً، ولَكن الكنيسة لم تتراجع بل جددت الحكم على ميليتون في مجامع مكانية، ثم جاءت خاتمة الانقسام في المجمع المسكوني العام.

وحتى أريوس بعد الحكم عليه، حاول الاستئناف في مجامع مكانية، ولكن تمسك أريوس بتعاليمه المنحرفة، كان وراء عدم إلغاء حكم التجريد و القطع من شركة الكنيسة. و لم تخف الكنيسة من السلطان الزمني، و لم تحاول مطلقا أن تتراجع أمام قوة السيف التي حملها قسطنطين وأولاده من بعده، وهم الذين دافعوا عن الأريوسية بقوة السلاح.

الهرطقةُ انحرافُ في فهم العقيدة، وليست ممارسة:

لم تأخذ الكنيسة مطلقا بالممارسات كأساس لاتهام الناس بالهرطقة، وإنما عندما تبنى الهراطقة ممارسات خاصة بهم، كان من الضروري إدانة هذه الممارسات؛ لأنها أصبحت تُعبِّر عن العقيدة. ولكن من الثابت تاريخيا أن العقيدة أقدم من الممارسة، ولا يمكن أن تستقر ممارسةٌ ما بدون عقيدة، ولعل خير مثال على ذلك هو بدعة انوميوس الذي أنكر وجود أقانيم الثالوث، ومارست شيعته التعميد بغطسة واحدة، كتعبير عن عدم الإ يمان باقانيم الثالوث. وهكذا عندما تصبح الممارسة تعبيرا عن

عقيدة معينة لا تقبلها الكنيسة، فإن الإدانة و اجبة. ولكن، وكما نعلم ، ليست الممارسات الكنسية واحدة في كل لكنائس الأرثوذكسية، و الذين يعرفون طقوس الكنائس الأرثوذكسية ، يعلمون أن السريان، والأرمن، والأحباش، يختلفون عنا كثيرا في الممارسات الكنسية، وطريقة الصوم، و إن كانوا يتحدون معنا في الإيمان، فلا يمكن أن ندين هؤلاء لمجرد أن الممارسات الكنسية مختلفة.

لقد حاول البعض اتهام البعض الآخر بالهرطقة، لأنهم قالوا بان المرأة الطامث يمكن أن تتناول إن أرادت، واحتكم البعض إلى العهد القديم، وإلى نص واحد من القانون الكنسي مجهول المصدر، ولكن ظل الأساس العقيدي غير واضح. لماذا لاتتناول المرأة الطامث؟ما هي الأسباب العقائدية التي تسمح أو تمنع؟ وما هو حكم التراث القبطي كله؟ وما الذي استقر في كتابات الآباء؟

ولعلنا نلاحظ نقطة ذات أهمية عند من قالوا بعدم تناولها؛ لأنها من اخطر ما قيل في هذ ا الشأن، وهي أن المرأة الطامث تفقد كمية من الدم، و أن الدم الخارج من الجسد يمنع التناول. إن خطورة هذا الكلام تكمن في أنه محاولة تفسير ممارسة، بممارسة أخرى، ولكن الكنيسة لا تفسر الممارسة إلاَّ بالعقيدة، ولذلك ففي ظل غياب التفسير العقيدي الواضح، لا يمكن أن نتهم الناس بالهرطقة، ولا حتى بالخطأ اللاهوتي،لمجرد أنهم يسمحون للمرأة الطامث بالتناول.

لقد حاول البعض القول بأن الدم الذي يجري في عروق الناس بعد التناول، هو دم المسيح، وهذا رأي غير معروف في التراث الأرثوذكسي الكنسي، وما أكثر معاني كلمة دم عند الآباء، بل وفي الكتاب المقدس. لم تكن الدورة الدموية معروفة في العصور السابقة، ومن الواضح طبيا أن كل السوائل التي تترل إلى بطن الإنسان، تتحول بعد ذلك إلى الدورة الدموية و إلى الكُليتين. ولايوجد فر ق بين البول والعرق والدم، فهي معا في الدورة الدموية. والقول بان دم المسيح في عروق الإنسان هو تحويل السر الإلهي من موضوع روحي إلى موضوع طبي بحتٌ يبحث طبيا.

لقد شرح القديس كيرلس الأورشليمي نص الصلاة الربانية" خبزنا الجوهري

أعطنا اليوم''، فقال : ''إن هذ ا الخبز ليس كالخبز العادي الذي يترل إلى البطن، ويندفع إلى الخلاء، أي يمر بالجهاز الهضمي، فالإفخارستيا ليست طعاما بائدا'' وهو ما أكده القديس أثناسيوس الرسولي بدوره، حيث قال :''إن الإفخارستيا طعام روحي، وإلاَّ لو كان طعاما ماديا، فكيف يشبع الإنسانية عبر العصور''. هنا الوضوح العقيدي يفتح باب الحرية في الممارسة، فليس المسيح طعاما يمكن هضمه، ولاهو بأجزاء يمكن أن تسقط من الفم، وإنما هو إله الكون، والضابط الكل، والذي يمسك كل الخليقة بكلمة قدرته (عب ١ : ٣)، وما الاحتراس الذي تسلمناه من السابقين سوى أن نتعلم كيف نهدأ داخليا، وكيف نقلل من الكلام والحركة للتفرغ للصلاة.

كذلك فإن عدم الاستحمام بعد التناول، يجب رده إلى الأساس التاريخي والاجتماعي، وليس العقيدي، فقد كان الاستحمام في العصور الأولى في الحمامات، و لم تكن الحمامات، مجرد مكان للاستحمام، بل كانت أشبه بصالونات الثقافة، ولذلك طلبت الكنيسة، عدم الاستحمام بنصوص واضحة منذ زمن ترتليان، لأن دخول الحمام كان يستغرق اليوم كله، وكان يعني التدليك والدهون والعطور والموسيقى والشعر وأحيانا الدعارة. هذا هو جو الحمامات الذي كان الآباء يحذرون منه، وهو الذي أدى إلى الامتناع عن الاستحمام ثلاثة أيام حتى تنضج الوحدة السرية بين المسيح و المؤمن، وحتى ينصرف الإنسان عن دخول الحمام لكي يقضي وقتا في الصلاة وتأمل كلمة الله.

ولكن الظروف تغيرت تماما، ولذلك، فان تغير الممارسة هو أمر يختاره كل إنسان حسب ظروفه الخاصة، وفهمه للأسرار، فهذه ممارسة لا شأن لها بالإيمان مطلقا، وليست عقيدة، وقبولها أو رفضها لا يعني خروج الإنسان عن العقيدة الكنسية.

العقيدة تفترض أكثر من مستوى في الشرح

لعل التدين الموروث هو الذي قادنا إلى عدة مآزق لا هوتية كُنا في غنى عنها لو أدركنا أن الكنيسة الأرثوذكسية تعتبر أن التعليم العقيدي الذي استقر في

الكنيسة، هو قانون الإيمان النيقاوي. هذا القانون هو اقل ما تطلبه الكنيسة من إيمان. وهو العقائد الأساسية التي حددتها الكنيسة بشكل و اضح في المجامع، وشرحها الآباء. وهذه العقائد لا مجال فيها لإبداء الرأي :-

*الثالوث، جوهر و احد وثلاثة أقانيم متمايزون مشتركون في كل الصفات الإلهية.

*التجسد، الميلاد من العذراء - إلوهية الابن، المساوي للآب في الجوهر.

*الصليب، انفصال النفس عن الجسد، واتحاد اللاهوت بالنفس والجسد.

*القيامة، بالجسد في اليوم الثالث.

*المجيء الثاني، للدينونة.

*الروح القدس، الناطق في الأنبياء - المساوي للآب والابن في الجوهر.

*المعمودية، الواحدة التي لا تتكرر لمغفرة الخطايا.

هذا الموجز، كما يصاغ في قانون الإيمان النيقاوي، هو العقائد العظمى المستقرة في كتابات الآباء، ويجب أن نضيف إلى هذا أسرار الكنيسة، و الخليقة غير المنظورة التي ذكرها قانون الإيمان النيقاوي بعبارة موجزة "ما يرى، وما لايرى "، ولكن علينا أن نميز بين شرح العقيدة من ناحية، وبين العقيدة والرأي من ناحية أخرى.

شرح العقيدة

على سبيل المثال، العقيدة "الله و احد في ثالوث، جوهر واحد وثلاثة أقانيم"، لكن كيف نشرح هذا؟

لقد قدم الآباء عدة تشبيهات، أشهرها الشمس و النور والحرارة. ورغم ذيوع هذا التشبيه، أو الشرح، إلا أن الآباء قدموا شروحات أخرى، أشهرها المحبة التي تقتضي ثلاثة :المُحب و المحبوب و المحبة. وكذلك تشبيه العقل الإنساني : الذاكرة، والمخيلة، والإدراك....الخ.

هذه كلها شروحات، ولكنها ليست العقيدة في حد ذاتها، إنها محاولات لتقريب هذا السر الفائق، ولذلك لم تقف هذه المحاولات عند حد، ففي كل

العصور قامت هذه المحاولات، كان آخرها شرح الفيلسوف السرياني يحيى بن عدي، الذي قال بالوجود والعقل والحياة، وهو الشرح الذي ذاع في الشرق منذ ذلك الزمان. فالكنيسة لا تقف عند شر ح و احد، و إنما يعمل الآباء بكل جهد لكي يقدموا المزيد، وهو عمل الناضجين من أبناء الكنيسة لأجل فائدة البسطاء والسذج الذين يصعب عليهم تقبل الأسرار العالية.

شرحٌ لعقيدةٌ أخرى

وهي موت المسيح على الصليب لأجل خلاص الإنسانية. فقد شرح البعض هذا الموت على انه اعتمد على إخفاء المسيح للاهوته عن الشيطان، ثم شرح البعض هذا من زاويةٍ أخرى، لها قيمتها في الدفاع عن العقيدة، وهي مشكلة العدل و الرحمة.

واستقر شرح ثالث من كتابات الآباء العظام، أثناسيوس وكيرلس السكندري وغيرهم، وهو شرح الصليب و الموت على أساس اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح الواحد.

فالموت هو قانون وثمرة الخطية، و القيامة هي ثمرة الاتحاد. فقد مات المسيح عوضاً عن الإنسان، وقام لأنه مصدر الحياة. وساد تفسير آخر في الشرق مأخوذ من المصادر الغربية، وهو موت المسيح النيابي عن الإنسانية للتبرير. كل هذه الشروح تحاول أيضاح، وتقريب موضوع الصليب على قدر الاستطاعة والإدراك، ولكن الحقيقة الظاهرة، هي أن هذه الشروح ليست هي العقيدة، بل هي محاولات الاقتراب من العقيدة الفائقة.

شرح ثالث لعقيدة أخرى

وهي اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح، وكل الشروح التي قدمت قبل أفسس ٤٣١ م اعتبرت محاولات جيدة لم يرفضها الآباء إطلاقا، ولكن عندما اشتدت الانحرافات اعتبر الآباء العظام كيرلس وساويرس الإنطاكي، إن امتزاج

اللاهوت بالناسوت ـــ وهو تعبير معروف عند غريغوريوس التريتري ـــ أصبح بعد النسطورية غير كافٍ، بل يمكن أن يؤدي إلى انحرافات، ولذلك تمسك الآباء بتعبير الاتحاد، ومع ذلك لم يستقر الجدل اللاهوتي حول حقيقة الاتحاد، وحقيقة العلاقة بين الطبيعتين، وهو ما أدى إلى انقسام الكنيسة في ٤٥١ م بسبب الخلاف على الكلمات و استخدامها، وليس بسبب العقيدة نفسها.

اعتباراً من ذلك الزمان، دخلت الروح الخلقيدونية الكنيسة شرقا وغربا، وأصبح الخلاف يحدد على أساس الكلمات، وتعلمنا أن نختلف على الكلمات، وليس على المضمون. كارثة حقيقية أن يكون الإيمان واحد عند الذين قبلوا خلقيدونية، وعند الذين رفضوه، ومع ذلك يختصمون في عنف وحدة إلى حد الاحتكام للسلاح، وإلى قوة الإمبراطور لقد صار اللاهوت عندنا مطارحات وكلمات ولُغة، ولكنه لم يعد منذ خلقيدونية الحياة السرية الإلهية التي تأتي من الله في يسوع المسيح والروح القدس. كيف وصلنا بعد ١٤٠٠ سنة إلى اكتشاف أن الخلاف في الحقيقة هو خلاف في اللفظ، لقد كانت الشجاعة وحدها هي المطلوبة لمواجهة الموقف، و إن كنا لسنا بصدد استعراض ما يمكن أن يدور من شروح حول كل عقيدة، فالموقف عندنا يجب أن يمتاز بجلاء شديد لكي نعطي الفرصة للناس لكي يفكروا فيها بحرية، وبلا إرهاب أو تخويف، فالعقيدة هي العقيدة، والشرح هو مستويات يجب أن نر اعي فيها ظروف السامعين ومستواهم وقدرتهم على الاستيعاب، كما أن ظروف الشرح نفسها لاتكون واحدة.

فالشرح للد فاع عن العقيدة، ليس مثل الشرح لأكتشاف الأعماق الإلهية. ومن يشرح الثالوث في مناسبة معينة، على أنه صفات جوهرية لرد اعتراض، ليس كمن يشرح الثالوث، ويدخل في مجال إبراز العلاقة بين الأقانيم. ومن يشرح الصليب على أنه لقاء الإنسان بالعدل والرحمة، ليس كمن يشرح الصليب كموت وحياة، وعلاقة الحياة، أي القيامة بشكل خاص بالأسرار، ولاسيما الإفخارستيا.

لقد حدثت محاولة لاتهام البعض الذين يرفضون اعتبار الإفخارستيا استمرار لذبيحة الصليب، بأنهم ينكرون الصليب والإفخارستيا معا. لكن الذين رفضوا كلمة

"استمرار" كانوا يقصدون ما هو اشمل من موت المسيح على الصليب، وهو القيامة.

فالكلام عن ذبيحة الصليب لا يكفي لإبراز حقيقة أن الإفخارستيا تشمل المسيح كله، من بيت لحم إلى يمين الآب.

كان الاتهام معيباً جداً ولا يتفق مع جلال السرالإلهي، الذي يمثل حضور المسيح، ليس على المذبح فقط، بل قائماً وحياً و قاهراً للموت، وهو العطاء الذي يُوهب للإنسان في هذا السر المجيد. لكن الذين جادلوا، لم يدركو ا أنهم في الأصل متفقون، وأن الاتفاق في أنَّ العقيدة واحدة، ولكن الكلمات مختلفة، فالشرح مختلف، والمناسبة نفسها قد تقتضي استبعاد كلمات، و الاهتمام بكلمات أخرى. لكن ماذا نفعل لروح خلقيدونية التي لا يقهرها سوى المحبة التي تطفئ نار الشجار والانقسام.

إن غاية دراسة العقيدة المسيحية هي أن نعود إلى اقتناء أعظم ما جاد به الله علينا، وهو عطية الإفراز و التمييز لكي ندرك أننا أمام أسرار فائقة لا نملك حيالها سوى أن نشرحها في اتضاع شديد، لكي نصل إلى ما هو أعظم، وهو الاختبار والتذوق.

إننا نحتاج إلى هدوء، و إلى عزم لغلق باب الجدل في الكنيسة في كل شيء، وأن نتوقف عن الاتهام بالهرطقة والتجديف وما إليه لكي نلتقط الأنفاس لعلنا ندرك أن الخلاف ليس قويا إلى هذا الحد، و أن هناك أموراً و اضحة متفقٌ عليها. والذين يريدون إشعال نار الخلاف، سوف يدمرون الكنيسة، فالنتيجة النهائية هي الكارثة المحققة التي يفرزها الانقسام، وضياع اهتمام الناس بالعقيدة، وربما بالكنيسة نفسها، بعد ذلك خصوصا إذا تميز الجدل بالسطحية، والبعد عن مجال الاختبار.

العقيدة والرأي

في إطار ما ذكرناه سابقا، يصبح من الواضح أن الإيمان بموت المسيح على الصليب هو غاية كل شرح، وأن الإيمان في النهاية يؤدي إلى تذوق قوة الصليب والقيامة في الحياة الشخصية بالكلمة الإلهية، وفي الأسرار لاسيما الإفخارستيا، لكن هذه الحياة الجديدة التي فينا في تطورها وصعودها من الأرض إلى السماء،

على قدر ما ترتفع في المسيح فوق مستويات الإدراك الحسي، على قدر ما تزيد فيها قوة البصر وتزيد رؤيتها للأمور الإلهية وتصبح الرؤيا أكثر وضوحا.

النفس النامية الحية لا تتوقف عند إجابة واحدة، ولا تتمسك بتفسير و احد، وإنما تنتقل إلى أبعاد وأعماق متفاوتة حتىتصل إلى الرؤيا المباشرة للحق الإلهي في يسوع المسيح لذلك السبب كثرت تفاسير الآباء، وتعددت كتبهم من عظات إلى تأملات، إلى تفاسير عقائدية لكل كتب العهد الجديد، و لم يتوقف الآباء عند تفسير واحد ورثوه من الآباء السابقين، ولكن أضافوا في كل جيل الجديد الذي يناسب الزمان الذي عاشوه. ولعل أفضل مثال هو شرح الصلاة الربانية للعلامة أوريجينوس، وكبريانوس، وذهبي الفم،و امبروسيوس، وكيرلس السكندري، ثم أغسطينوس. لم إذا شرح كل هؤلاء الآباء الصلاة الربانية من جديد؟ و الإجابة هي أنهم وجدوا ما يمكن أن يضاف، وما يمكن الكشف عنه من جديد لمعان جديدة للأ سرار التي أودعها الرب كلماته. و لم يتهم احد الآخر أنه أخطأ و لم يسفِّه تفاسير الذين سبقوه، ولكنهم كانوا ارفع من سلوك المراهقة الفكرية الذي يظهر بوضوح في حياة المبتدئين لا سيما الشباب من الإكليروس والعلمانيين.

هذه التفاسير المتعددة هي آراء، وهي آراء تقدم في تقوى، ولاتهدف إلى البلبلة وإشاعة الاضطراب في حياة الكنيسة، فمن الواضح أن الكنيسة قبلت الكل، وقرأت الكل، وأفسحت رأيها لكل جديد، فليس لدينا حدود لكلمة الله في الأسفار الإلهية، وكلما تقدمت المعرفة الإنسانية، كلما ازدادت معرفتنا بكلمة الله.

إذا انتقلنا إلى مجال آخر أكثر دقة، لا يخلو أيضاً من خطورة، اكتشفنا أن الآباء وقفوا عند التحديدات العقائدية، والتي قبلتها الكنيسة، و لم يحاولوابالمرة إضافة شيء، أوحذف شيء، ولكن الآباء أدركوا أن هناك موضوعات يمكن الإدلاء فيها برأي، على ألاَّ يعتبر هذ ا الرأي عقيدة بالمرة، ذلك أن التحديد العقيدي فيها غير جائزٍ، و إنما يفوق الإدراك، ومع ذلك يمكن الاقتراب منه بشجاعة مصدرها

اعتبار أن الإيمان ببعض القضايا هو أمر متروك للمستقبل. والمثال الواضح على ذلك هو مصير الأطفال غير المعمدين. العقيدة المسيحية الواضحة إن الذين ينالون المعمودية، يخلصون، إن عاشوا حياة القداسة، لكن مصير غير المعمدين، ولا سيما الأطفال، هو أمر غير معروف بالمرة، ولذلك رسخ في كتابات الآباء:

١ــ أنهم لا يهلكون، ولا يمجدون.

٢ــ يخلصون لأنهم لم يُخطئوا.

٣ــ يهلكون لأنهم لم يُعمدوا.

والرأي الأول والثاني سادا في الشرق، والثالث ساد في الغرب حتى حركة الإصلاح. وحقيقة الأمر أننا يجب أن نقول إننا لا نعرف، لسبب واضح بسيط، هو أن مصير الأطفال هو أمر في يد الله وحده الذي يعرف مصائر الخليقة.

على أي أساس عقيدي يمكن أن ندين الذين قالوا بالرأي الأول أو الثاني أو الثالث، لا نملك هذ ا الأساس العقيدي، لأننا بكل وضوح لا نضمن الحياة الأبدية للمعمدين أنفسهم لمجرد أنهم نالوا المعمودية، و إنما نطالبهم بالقداسة، وحتى اكتمال حياة القداسة في المعمدين لا يحكم عليه إلاَّ الله، وهو ما يجعلنا نصلي من أجل الراقدين.

ومثال آخر، هو من هم الذين بشرهم المسيح عندما نزل إلى الجحيم؟ الاتفاق العام الواضح، هم قديسو العهد القديم، والاختلاف في الرأي، هو حول الذين ليسوا من أنبياء العهد القديم، وهم الوثنيون الذين عاشوا بمقتضى ناموس الطبيعة.

ومثال آخر، الذين يموتون وهم لا يعرفون المسيح، هل سيدان هؤلاء حسب شريعة الإنجيل، أم حسب الشريعة الطبيعية، وهل سيعرض عليهم الإنجيل بعد الموت.

كل هذه موضوعات لا يمكن أن نقطع فيها برأي واضح، لأننا أمام موضوعات غير ظاهرة بوضوح في الكتاب المقدس، ولم تشرح بكفاية في التسليم الرسولي، والاجتهاد فيها أمر واجب، ويبقى الاجتهاد رأياً، لا يقال كتعليم أو عقيدة، وإنما يقال للرد على التساؤلات التي تثار عن خلاص الذين لم تُتح لهم فرصة معرفة المسيح في هذه الدنيا.

لقد أدرك الآباء أنهم أمام موضوعات لم يتلقو ا بشأنها تسليما، و لم تدون بوضوح في الأسفار المقدسة، وان عليهم أن يجيبوا على أسئلة الشعب، وأجابوا دون خوف أو اتهام. وكانت الكنيسة تعرف أن الأمور الخاصة بما بعد الموت هي أبعد من كل قدرات البشر، ولا يعرفها إلاَّ الله وحده، ولذلك تركت باب الاجتهاد فيها مفتوحا دون أن تعتبر أن في ذلك هدم للإيمان أو القضاء عليه.

وإذا حصر نا الموضوعات التي أدلى فيها الآباء بآرائهم، فهي بكل تأكيد تدور حول :-

١- الحياة بعد الموت.

٢- طبيعة الثواب.

٣- طبيعة العقاب.

٤- طبيعة جسد القيامة.

٥- العلاقة بين الملائكة والبشر، ورتب الملائكة، و الفرق بين هذه الرتب، وطبيعة الحياة الملائكية.

٦- أصل النفس الإنسانية، وهل هي تولد مع الجسد أم تخلق عندما يتكون الجنين.

وبخصوص الكتاب المقدس نفسه، اعتبر الآباء أن قصة سفر التكوين، رمزية لا يجوز أن تؤخذ بشكل حرفي. وامتد منهج الرمزية إلى الأسفار نفسها، فشمل أسفار نشيد الأنشاد، ويو نان، وهوشع، واعتبر البعض أن يونان قصة لم تحدث في الواقع، وإنما هي قصة سُردت من اجل أيضاحً حقيقة مستقبلية عن قيامة المسيح، وان سفر هوشع هو سفر رمزي تماماً ورفض البعض الرمزية تماماً، وتزعم تيار رفض الرمزية القديس كيرلس السكندري.

كل هذا يؤكد أن حرية الاعتقاد تدور حول مسائل بعيدة تماما عن العقائد العظمى، وأن باب الآراء مفتوحا طالما أن حرية الرأي لا تصطدم بالتعليم وبالعقيدة، وطالما أن الرأي لا يهدم الإيمان في النهاية، ولا يُعلن كعقيدة.

و لم يتفق الآباء جميعا على دور الأدب والفلسفة والعلوم والمنطق في التربية

المسيحية، وكانت لهم آراء واضحة، حارب البعض الفلسفة اليونانية وهاجمها بعنف.

واعتدل البعض وجعل الفلسفة اليونانية مقدمة يمكن أن تستخدم لشرح الإنجيل. وبينما حذَّر البعض الشباب من قراءة الأدب اليوناني، ووصل التحذير حد التهديد أحياناً، إلاَّ أن البعض الآخر مدح الأدب اليوناني، وكتب يشرح كيفية قراءته والاستفادة منه.

لقد قبلت الكنيسة التعددية، ليس في العقيدة، ولكن في التفسير، وقبلت التعددية في التربية الروحية، وفي الطقوس الكنسية، والنظام الداخلي، ورأت الكنيسة أن هذا غنى وحياة وحرية ، كانت الكنيسة بلا خوف، وكانت الكنيسة تعرف تراثها جيدا. وكان في الكنيسة شيوخ يمكنهم أن يقولو ا رأيهم لأنهم نالوا عطية الإفراز والتمييز، وذاقوا قوة الحرية، وعبرو ا المراهقة الفكرية إلى سلام الحكمة، وهدوء الشيخوخة.

وياليت الله يرسل إلى الأم الكنيسة من يصبحو ن شيوخا عندنا يقودون الكنيسة إلى بر السلام والأمان.

الفصل الثاني

الفرق بين العقيدة والهرطقة والرأي

إذا كان الاتهام بالهرطقة ليس سهلا كما تصور البعض، فكيف نُميز بين رأي لا نجده في كتب اللاهوت التي في أيدينا، وبين الهرطقة؟

إن الإجابة على هذا السؤال، سهلة إذا حصرنا الهرطقات التي حكمت عليها الكنيسة الجامعة في المجامع المسكونية، وهي :ــ

الغنوسية ــ و المانوية ــ و الابيونية ــ و المونتانية ــ والأريوسية ــ والابولينارية ــ والنسطورية ــ والاوطاخية.

لقد أدانت الكنيسة هذه الهرطقات، ولانعرف في تاريخ الكنيسة في الشرق غيرها، كما أدانت الكنيسة في الغرب عدة هرطقات أيضاً أشهرها البيلاجية، وتعاليم أخرى عن الأسرار، لا سيما الإفخارستيا، وذلك بعد القرن العاشر.

لقد حددت الكنيسة الغربية ــ منذ زمن أوغسطينوس، وليس قبله ــ ما هو السر الكنسي، وعدد الأسرار، وعلاقة الأسرار بعضها ببعض. كما حددت الكنيسة الغربية تعليم الاستحالة الجوهرية. وسار الشرق على المنهج الغربي، وقبله دون تردد، فقد كان يمثل تطوراً مقبولاً يتفق مع ماثبت في الكنيسة من ممارسات وطقوس وعقائد. ولذلك، فلو سألنا متى، وأين حددت الكنيسة التعليم بأسرار الكنيسة مثل عدد الأسرار، وفاعليتها في النفس و الجسد؟ فإن الإجابة تأتي من كتب اللاهوت الغربية، لأن الكنيسة الشرقية لم تعقد مجمعا قبل انقسام ٤٥١م، وما بعده، تناقش فيه العقيدة أو مثل هذه المسائل. ومنذ القرن التاسع عشر، قبلت الكنيسة البيزنطية، التعليم بالأسرار السبعة، وساد التعليم في الشرق، ودخل عندنا منذ أن كتب عريان مفتاح وحبيب جرجس عن الأسرار، وكانت

كتبهم هي أول ما كُتب عن الأسرار عندنا منذ زمن العلامة ديديموس الضرير. وقد قبلت الكنيسة هذه الكتب لأنها تتفق مع ما تمارسه من أسرار، و لم تسال عن المصدر، ولا عن التاريخ، لأ ن ما حدث كان مثل التعبير عن الأمر الواقع. فلم تكن الأسرار أقل من سبعة حتى جاء حبيب جرجس وجعلها سبعة، فالأسرار سبعة منذ العصر الرسولي، مع فارق واحد، وهو أن الرقم سبعة لا يظهر في كتب الآباء شر قا وغربا في القرون الخمسة الأولى. لكننا يجب أن نكون على وعي بان القرون الخمسة الأولى ليست هي الميزان الوحيد، فالتاريخ في الأرثوذكسية كتاب مفتوح، و الادعاء بأن ما جاء بعد القرن الخامس هو دخيل، مثل صوم العذراء، أو صوم الميلاد، أو أيام نينوى، معناه أننا نفهم التقليد الكنسي بشكل بروتستانتي.

لقد رفضنا شهود يهوه بسرعة، فقد كان تعليم شهود يهوه يتفق مع تعليم المدرسة الأريوسية ، ورفضنا شيعة السبتيين، لأنها ردة إلى الأبيونية، أو التيار المتهود داخل الكنيسة. كما رفضنا تعليم خلاص النفوس، ليس لأننا ضد الوحدة المسيحية، وإنما وجدنا أنالضائع في النهاية هو الأسرارالكنسية التي لايمكن أن تنشأ حياة روحية صحيحة بدونها. وهكذا كانت معرفتنا بالهرطقات القديمة عنصرا أساسيا لتمييز الهرطقات عند شهود يهوه والسبتيين وغيرهم.

إذن علينا الاستعانة بالمعرفة الأساسية بالهرطقات القديمة لإدراك النقطة الأساسية التي لا يمكن أن نقبلها، والتي لا يجوز أن نساوم عليها.

وقد يبدو في بعض الأحيان، وفي حدود معروفة، أن الخط العقيدي الأرثوذكسي يسير جنبا إلى جنب مع بعض الخطوط الفكرية لكبار الهراطقة، ولعل خير مثال على ذلك، هو الالتقاء بين الأرثوذكسية والمانوية، وهو التقاءٌ لا نجده في كتب الآباء العظام، و إنما نجده في مؤلفات العصور الوسطى، والعصر الحديث. إن تعليم المانوية الواضح هو رد كل شيء في الإنسان والكون إلى ثنائية بين الجسد والروح، والخير والشر، والنور والظلمة، كما نجد أن خط التقسيم يبدأ من الله نفسه، المنقسم إلى اثنين : إله الخير و إله الشر، لكي ينتهي إلى الإنسان والمادة. وعندما تحولت المانوية إلى حركة صوفية، د اخل الكنيسة الجامعة، كان قرارها

بطرد المانويين حاداً وعنيفاً في بعض الأحيان.

لكن هل فارقت المانوية الكنيسة القبطية؟

لقد سمعنا من يقول إن خطية آدم ينقلها الزواج، فالشر ينتقل من جيل إلى جيل عبر الزواج، وما بذرة الرجل في رحم المرأة ليس إلاَّ شيئاً ملوثاً بالشر.

لقد اختلط الأمر عند الذين مزجوا بين التربية الروحية التي تقتضي الإقلال من العلاقات الجنسية، واستحسان الامتناع عنها قبل التناول، وأثناء الصوم، لكي يتفرغ القلب والعقل للصلاة والصوم. هذا الاتجاه الروحي المرتفع لم يفلت من التلوث الفكري بالمانوية. الحكم على الجسد بالدنس، واعتبار الطامث نجسةً مما جعل احد كنائس القاهرة تخصص مكانا معينا للطامثات. والفرق الدقيق بين الأرثوذكسية والمانوية، هو أن الشر ليس عنصراً ولاهو كيان ولاهو في بذرة الرجل، أو في البويضة في رحم المرأة، هذه كلها اتجاهات مانوية.

لقد أخذنا عن آدم الطبيعة الميتة، والفرق بين الموت والشركبير. فالإنسان العاجزعن الحياة، ليس مثل الإنسان الشرير بالطبيعة. وما أعظم الفرق بين أن يكون الشر قد انتقل من آدم إلى البشرية بالوراثة، وبين أن يكون الموت وانعدام الشركة مع الله هو الموضوع الأساسي الذي من أجله جاء المسيح لكي يرد الموت والفساد عنا.

إن التعليم بالخطية الأصلية يسير في ثلاثة خطوط :-

١- خط الآباء الشرقيين جميعا، وهو خط الكتاب المقدس نفسه.

٢- خط أوغسطينوس، وهو خط يتفق فيه مع بعض ما عند الآباء، ويختلف في البعض الآخر.

٣- خط ماني، والغنوسية.

هذه الخطوط الثلاثة تبدو ولأول وهلة متوازية، لكنها في الحقيقة متقاطعة، وما يميز هذه الخطوط بشكل أساسي هو :

١- إنَّ وجود كيان وجوهر للشر، هو تعليم غيرمقبول في الكنيسة شرقاً وغرباً، وهذه هي النقطة الأساسية التي تفصل بين ماني والكنيسة.

٢- إنَّ ما نرثه من آدم حسب تعليم الآباء الشرقيين، هو الطبيعة الإنسانية الفاسدة، والموت، وفقدان الشركة مع الله.

٣- إنَّ ما نرثه من آدم حسب تعليم أوغسطينوس، هو ذنب آدم، مع العناصر الأخرى التي يعلِّمها الشرق.

إذن الفرق الأساسي ظاهرٌ، ولذلك فإن محاولة تجنب تفسير أوغسطينوس للسقوط، ما هي إلاَّ تمسك بالتراث، وابتعاد عن التعليم الغربي؛ لأن هذا التعليم يثير الكثير من المشاكل، تلك التي عالجتها الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت تأخذ بتعليم أوغسطينوس، وأصبح من الضروري أن نأخذ بالدراسات الحديثة؛ لأننا لم نشترك في إدانة البيلاجية، ولم نقبل أوغسطينوس في الشرق إلاَّ في عصرٍ متأخرٍ جداً.

كل هذا يجعلنا ندخل في دراسة نقطة أخرى، وهي الحياةُ الأبديةُ كهبة من الله في يسوع المسيح. فالتعليم الفلسفي القديم الشائع منذ سقراط، هوأن الإنسان بالطبيعة خالد لايموت. أمَّا تعليم الكتاب المقدس، فهو أن الخلود هبة وعطية من الله للإنسان، فقدها عندما سقط، وأعيدت إليه في المسيح. وحول هذه النقطة تدور كل الموضوعات العقائدية الأخرى، وبشكل خاص الإفخارستيا.

إن النقطة التي قد نلتقي عندها مع شهود يهوه، هي أنهم يعلِّمون بأن الخلود هبة للإبرار فقط، أمَّا الباقين فإنهم يتحولون إلى عدم أو إلى فناء. إلاَّ أنَّ الالتقاء عند هذه النقطة، لابد وأن يبرز عدة فروق، هي :ـــ

١ـــ إن الخلود هو منحة في يسوع المسيح للكل، وهو ما يؤدي إلى قيامة الأشرار لدينونة.

٢ـــ إن الخلود يُعطى في المعمودية، والميرون والإفخارستيا، وهو ما لايعترف به شهود يهوه.

٣ـــ إن الخلود هبة، وليس مكافأة على سلوك الإنسان وإيمانه، وعقيدة شهود يهوه، بشكل خاص تجعل الخلود مكافأة خاصة لمن يموت في سبيل دعوة شهود يهوه.

جماع القول، إن الاتفاق يحتاج إلى الانتباه إلى النقاط التي نختلف عليها مع

غيرنا وإلى الإطار العقيدي العام الذي يبرز الأهداف الروحية للهرطقة. فالخلود عطية نتذوقها في الأسرار، لا سيما الإفخارستيا، وهي ثمرة من ثمار اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح يسوع، هذ ا يدخل في الإطار اللاهوتي أو العقيدي للمسيحية، الذي يقوم على الاعتراف بإلوهية الابن، ومساواته بالآب في الجوهر، بينما خلود الأبرار هو منحة نالها يسوع نفسه، قبل أن ينالها الأبرار.

وهكذا لا يمكن فصل عطية الحياة الأبدية عن الإ يمان النيقاوي، بينما هي مبتورة تماما عند شهود يهوه، ولا علاقة لها بالإيمان بإلوهية الابن.

إن أكثر ما يهمنا في هذ ا المجال، هو اقتناء التمييز، وإدراك أن الالتقاء مع الهراطقة حول تعبير معين أو نقطة معينة، أو حتى عقيدة ما، يحتاج لان نراه في الإطار العقيدي الشامل الذي لا يسمح لنا بان نتفق مع الهراطقة.

وإذا كان الإطار العقيدي الشامل يكفي لأ ن نُميز بين العقيدة والهرطقة، فكيف يمكن أن نميز بين الهرطقة، والرأي؟

في ضوء الاتهامات التي وجهت إلى البعض في هذا الجيل، يلزمنا أن نعود مرة أخرى إلى موضوع الهرطقة كمدرسة تفسر بشكل شامل، ليس عقيدة واحدة، بل عدة عقائد معا. لنأخذ مثلا الأوطاخية، من الواضح أن الأوطاخية، وقد علَّمت بأن الناسوت قد ذاب في اللاهوت مثل نقطة الخل في محيط من الماء، وقد أنكرت بشكل واضح عقيدة التجسد، فيجب أن نرى بكل وضوح أن ذوبان الناسوت معناه بشكل صارخ، عدم وجود الإفخارستيا في الكنيسة. فنحن لا نستطيع أن نتصور ــــ مهما كانت درجة الإدراك ــــ أن المناداة بالأوطاخية تعني التمسك بالإفخارستيا.

وكما أن إنكار التجسد يؤدي إلى هدم الإفخارستيا، كذلك أيضاً إنكار اتحاد اللاهوت بالناسوت في النسطورية يؤدي بشكل مباشر إلى إنكار الإفخارستيا أيضاً، وكذلك إنكار أن الكنيسة هي جسد المسيح الواحد.

فإذا كتب أحد الناس عبارات نشم منها رائحة الأوطاخية، فإن الاتهام لا يجب أن يوجه إليه متى كان يعتقد بشكل مباشر أن الإفخارستيا هي جسد المسيح

ودمه، وبأن الناسوت ظل متحدا باللاهوت بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. أما إذا أنكر أن الإفخارستيا هي جسد المسيح الحق، فإن الاتهام تصبح حقيقة.

إن ما عندنا من آراء يجب أن يوضع في إطار التصور العقيدي الشامل، الذي لايسمح لنا أن نقول عن إنسان ما إنه أوطاخي، أو نسطوري، أو أريوسي.... الخ، إلاَّ إذا كانت عبارته تمس أكثر من عقيدة، وتهدم بشكل مباشر التعليم الأرثوذكسي. أمَّا غير ذلك، فإننا جميعا نقع تحت قوة كلمات الرسول يعقوب ’’لا يكن منكم معلمون كثيرون يا إخوتي، فانَّا بذلك على ما تعلمون نجلب علينا دينونة أقسى. وأن جميعنا نزل كثيرا مَن لا يزل في الكلام رجل كامل‘‘ (يع ٣ : ١٠ ـــ ٢٢) ومَن مِنّا لا يزل في الكتابة، ومَن منا لا يكبو قلمه، ولكن كبوة القلم مرة أو أكثر، ليست هرطقة، إلاَّ إذا توفرت النية الواضحة في القضاء على العقائد الأخرى النابتة من العقيدة التي لم يحسن الكاتب التعبير عنها. هذه العقائد النابتة أو المتفرعة من بعضها لا يمكن للهراطقة قبولها، والبقاء على مذهبهم المتطرف، ويمكن أن نلقي نظرة على هذه النقطة الهامة كالآتي :ـــ

الغنوسية المانوية :

إله للخير و إله للشر – **الثنائية بين الروح والمادة – إنكار العهد** القديم تماما، وإنكار بعض أسفار العهد الجديد – إنكار التجسد – إنكار الأسرار.

الأريوسية:

الابن ليس من جوهر الآب – الابن يحتاج إلى التبني مثل البشر – إنكار الثالوث – إنكار التجسد — إنكار المعمودية.

ويمكن على هذ ا النحو أن نرى أن العقائد المتفرعة عن اتحاد اللاهوت بالناسوت هي الإفخارستيا، ثم الكنيسة. وهذا يعنى بشكل أساسي أننا لانستطيع أن نتهم، ولا أن نستخدم الأسماء القديمة للهرطقات إلاَّ إذا كان لدينا دليل أوأكثر يؤكد أن التعبيرات التي استعملها البعض، تقضي على العقائد الأخرى المتفرعة من العقيدة التي لم يُحسن الكاتب أو الواعظ التعبير عنها بدقة. وإلاَّ لتعرض الذين يُعلِّمون أن إفرازات الجسد نجسة، أو لعنة أو خطية، للا تهام بالمانوية أو الغنوسية،

ولكننا لم نفعل ذلك لأن الشرط الأساسي لإتباع المدرسة المانوية، وهو الإ يمان بإله للخير وإله للشر، غير موجود بالمرة، ولا دليل عليه.

إن الكنيسة تحتاج إلى تمييز،وإلى إفراز قبل أن تدين أولادها؛ لأن الدينونة رهيبة خصوصاً إذا كان هؤلاء أبرياء، وهم يناضلون عن الإ يمان بكل وضوح، ويحاربون الهرطقات كلها.

ليت الله يمنح لنا نعمة لكي ندرك خطورة الطريق الذي نسير فيه، لان قتل حرية البحث، وحرية الكتابة معناه في النهاية قتل قدرة الكنيسة على التعبير عن إيمانها، والخوف لا يصنع الرجال، والمحبة تبني، أما الإرهاب، فيهدم.

الفصل الثالث

كيف نبحث نقاط الاختلاف؟

العصمة تنشر ظلالها الآن على كل شيء، وهي ليست عصمة ؛ لأنها في حقيقة الأمر، ليست إلاَّ صورة دينية للا ستبداد. فالذين يقولون أو يعملون شيئاً ما لا يملكون التراجع عنه بالمرة، ولا حتى بالتراجع المهذب المنظم؛ لأن البحث عن زعامات تتلقى الوحي، وتنقل كلمة الله فورا من الله إلى الجهال، هو الطابع الذي يسود حياتنا جميعا.

نحن أسرع الناس في الانفعال، وأسرع الناس في إصدار الإحكام، وأبطأ الناس في التراجع عن الأخطاء التي ارتكبناها في حق الآخرين.

كيف يمكن أن نبحث نقطة لاهوتية أساسية أو ثانوية في هذا الجو الغائم الذي تساهم الإشاعات والأقاويل في إسدال ستار كثيف مظلم عليه يمنع الفكر السليم من الانتشار. إن مسئولية الشعب عظيمة، لأنه لا يدرك أنه بالاستسلام للإشاعات يطمس الحقائق، ويقتل قادته، ومسئولية القادة أعظم لأنهم بالسلطة وحدها يعلِّمون الناس الخوف وسيف القطع خرج من غمده من المائة سنة الأخيرة بدون إبداء الأسباب، وفي مناسبات كانت فيه الكنيسة أحوج ما تكون إلى مرهم المحبة، ودواء العقل أكثر من احتياجها إلى السلطة.

لقد كُتب الكثير عن حرب فيتنام، وسوف يُكتب أكثر، لكن من أعظم ماسمعته، وقرأته هو تعليق معلق بريطاني، قال : ''إن هزيمة القوات الأمريكية بالانسحاب يعيد إلى الأذهان خلاصة التاريخ الإنساني كله، وهو أن البندقية لا تستطيع أن تهزم العقيدة''. وتذكرت على الفور ما قيل عن نضال الكنيسة القبطية ضد الإمبراطورية الرومانية، وكيف أن أثناسيوس الأعزل من السلاح تماماً، كان

عندما يختفي، يهتز عرش قسطنطين، أو كما قال المؤرخ جيبون كان أثناسيوس هو الإمبراطور غير المنظور الذي استطاع أن يكون حاضرا على الدوام في البلاط الإمبراطوري.

وما رفض مجمع خلقيدونية ٤٥١ م والأحداث التاريخية التي تطورت بعده، سوى دليل على أن السيف عاجز تماما أمام الفكر، لا يملك أن يقطع قوة الاعتقاد، فهي تنتمي إلى مستويات أعظم من مستويات الحديد والنار.

إننا لا نزال بعيدين عن الثروة التي حفظها لنا التاريخ القبطي، وهذا هو سر التفتت الرهيب الذي يسود الكنيسة الآن. لم يُستوعَب تاريخ كنيستنا بعد، لأنه لازال مجموعة من القصص التي تقال لإثارة الشعور بالبطولة، وهذا حسن، وتُتلى لكي نتعزى بأمجاد الكنيسة، وهذ ا أيضاً حسن جداً، ولكننا نحتاج إلى التاريخ لندرس حرية الحياة، والقوانين التي تحكم تطور الأحداث، وهذا هولُب التاريخ وجوهره.

لست ادري كيف يمكن التصدي للرأي بالسلطان وحده؟ ولست ادري أين ينطبق هذا على أي صفحة من صفحات التاريخ القبطي الكنسي؟

إن العصمة بسبب الرسامة لدرجة من درجات الكهنوت، هي قصة قديمة رفضتها الكنيسة، ليس لأنها كانت أحد معالم الهرطقة المونتانية التي حاولت الادعاء بوجود أنبياء في الكنيسة يفصلون في كل الأمور حتى العقائدية بسبب حصولهم على وحي مباشر من الروح القدس، وإنما لأن أدوات الفصل في الأمور الكنسية هي :ـــ

الكتاب المقدس ـــ شهادات الآباء، وإدراك الشعب للحق ـــ الليتورجية. هذه الأدوات وضعها الآباء الرسل أعمدة الحق في الكنيسة، فكل ما هو ليس مشيدا على تعليم الرب والرسل، ليس من الكنيسة. وشهادات الآباء ووعي الشعب للحق هو بدوره ما يجعل الحق و اضحاً إلى الدرجة التي لا يمكن فيها الالتجاء إلى نبو ات جديدة. والليتورجية وهي عصارة الحياة الكنسية، هي أعظم من أن تكون مجرد صلوات، بل هي مرآة الحق وخلاصة خبرة الكنيسة، وهي التي تؤهل

الإنسان بالممارسة واندماج كلمة الله مع الأسرار، لكي يميز الحق من الضلال.

إننا نسى أحياناً أن أشر الهراطقة كانوا من الإكليروس

أريوس : كان قساً من الإسكندرية.

ميليتوس : كان أسقفاً لأسيوط.

ليباريوس : كان أسقفاً لروما.

نسطور : كان بطريركاً للقسطنطينية.

أوطاخي : كان رئيس دير.

أبوليناريوس : كان أسقفاً للاذقية.

هؤلاء لم تعصمهم الرسامة من الوقوع في الخطأ. والعبرة ليست في درجة الكهنوت، و إنما في الخلافة الرسولية، أي أن يكون الأرثوذكسي رسولياً على درجة الحياة والإيمان الذي أخذناه من الرسل.

العصمة هي في التسليم الرسولي، و التسليم الرسولي ليس عند الإكليروس، ولا عند الشعب، بل هو عندهما معا. وحضور العلمانيين في المجامع المسكونية و المكانية، واشتراكهم في أعمال هذه المجامع هو حقيقة تاريخية لا يرقى إليها الشك. لكن المشكلة الأساسية هي في السرعة في الاتهام ثم السرعة في إصدار الأحكام، والبطء الشديد في إبراز ما يعلِّم به التسليم الرسولي.

لقد حددت الكنائس الأرثوذكسية عقيدتها في مصادر رسمية معروفة، ما عدا الكنيسة القبطية، التي لا تزال تعيش حسب القاعدة الرسولية القديمة جداً، وهي اعتبار قانون الإيمان بمثابة الدعامة الأساسية التي يرتكز عليها كل شيء، و الباقي متروك لنمو ونضوج كل إنسان حسب قدرته، وللإرشاد الروحي والتعليم.

هذه الحقيقة تجعل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أكثر أرثوذكسية من غيرها. فالحقيقة المؤكدة هي أن التعليم الأرثوذكسي هو خبرة متفاوتة الأعماق، و الناس كلٍ على قدر إيمانه ونضوجه. وقد شهدنا ذلك في السنوات الماضية عندما تزعم الحياة الروحية قداسة البابا كيرلس السادس، و القمص ميخائيل إبراهيم، ومن قبلهما الأنبا إبرام أسقف الفيوم المتنيح، واسكندر حبيب، وحبيب جرجس،

وغيرهم. وأقل ما يقال إن هؤلاء لم يكونوا على درجة من الثقافة اللاهوتية الجامعية، وإنما كانوا أعظم أساتذة بسبب ما توفرلديهم من خبرة شهدت لهم ، وأعطت للكنيسة القبطية نفسها شهادة على أنها لا تزال تملك أكبر قدر من الإفراز، فهي تعرف المعلم الصالح، وتسير خلفه ولو كان لا يحسن الوعظ، أو يملك فصاحة اللسان.

هل تحولت الأرثوذكسية إلى كلمات وأحاديث، وهو ما يفسر الشجار والمنازعات أم أننا لا زلنا نملك قدرًا من الحياة السرية يساعدنا على التمييزالدقيق بين الصواب والخطأ؟ إن الإجابة ظاهرة على صفحة الحياة الكنسية، وهي إجابة لاتوحي بالاطمئنان، فقد كثرت المحاكمات الكنسية وقرارات منع هذا وذاك من الخدمة، وأصبح من الواضح أننا نتجه إلى سيف خلقيدونية، وليس إلى تمييزالكنيسة القبطية الذي كان يعالج دائما بمرهم المحبة.

إن كثرة الكلام مع الإحساس بعصمة المعلم، هو موقف يجب أن نخرج منه بكل سرعة بالعودة إلى التراث القبطي، وهو تراث يمتد من القرن الأول حتى القرن العشرين.

عيب كبير لا يمكن لأحد أن يصفه، لأننا نملك اكبر وأعظم المؤلفات اللاهوتية التي غيرت تاريخ المسيحية، ومع ذلك لا تزال هذه المؤلفات مجهولة، وحتى الذين يعرفون لا يلجئون إليها إلاَّ فيما ندر. كيف يمكن أن نتكلم عن تقليد الكنيسة، ونحن كنيسة تقليدية، ونترك هذا التقليد في أركان مظلمة من المكتبات؟ ليس هذا حكماً جائراً، ولكنها الحقيقة الواضحة.

حقبات التاريخ القبطي الثلاث

الحقبة اليونانية التي تبدأ بالقديس أكليمنضس السكندري، وتنتهي بالقديس كيرلس الكبير(القرن الأول حتى القرن الخامس).

الحقبة القبطية التي تتد اخل معها، وتبدأ بالعهد الجديد القبطي في القرن الأول، وتنتهي عند العلامة المؤرخ القبطي ساويروس بن المقفع (القرن الأول–القرن العاشر).

الحقبة العربية، وبدأت مثيرة منذ بداية القرن التاسع، ومع ذلك لم تتأصل إلاَّ في القرن العاشر مع بداية كتابة بن المقفع، ولا نزال فيها حتى الآن.

حقبات ثلاث تفصل بينها اللغات، وليس التاريخ، وهو ما يقرر أن عودة الحياة للكنيسة القبطية لن تكون إلاَّ على يد الجيل الذي يتقن اليونانية و القبطية، وينقل التراث كله إلى اللغة العربية. قبل هذ ا العمل، سوف يحكم التاريخ بأن ما نفعله الآن، وما ننشره ليس إلاَّ انعكاساً للحياة الفكرية التي نحياها، وأن ما لدينا يفتقر إلى مياه الينابيع الأولى. ومثال على هذ ا يبدو غير مألوف على الآذان، الجدال الذي صار حول حلول الروح القدس، و الجدل الذي صار على المواهب والأقنوم. كيف يمكن أن نحل الأسئلة المتعلقة بهذا الموضوع، وفي إطار التسليم الرسولي وحده؟

في التراث توجد هذه المؤلفات عن الروح القدس:

القديس أثناسيوس الرسائل الخمس إلى سيرابيون

القديس باسيليوس الكبير كتاب عن الروح القدس

العلامة ديديموس الضرير كتاب عن الروح القدس

القديس امبروسيوس كتاب عن الروح القدس

القديس كيرلس عمود الدين العبادة بالروح والحق، وكتاب الثالوث.

ثم لدينا شرح رسائل القديس بولس الرسول للقديس يوحنا ذهبي الفم، وتفسير إنجيل يوحنا للقديس كيرلس عمود الدين، ثم مقالات هامة لابن المقفع، وبولس البوشي.

قبل عرض هذا التراث الضخم، كل ما نقوله، هو اجتهاد لا يمثل سوى هامش صغير في أسفل صفحة التراث القبطي، وكل حكم على الذين كتبوا أو نشروا شيئاً عن الروح القدس لا يستند إلى التراث القبطي هو حكم يحتاج إلى مر اجعة، إلاَّ إذاكان الحكم يعتمد على خطأ لاهوتي ظاهر سبقت إدانته في مجامع مسكونية أو مكانية.

ومثا لٌ آخر حول مدلول الشركة في الطبيعة الإلهية، حسب تعبير القديس

بطرس (٢بط١ : ٣ــ ٤). إن نظرة على التراث تفصل في الموضوع برمته، وقبل هذه النظرة الفاحصة، كل ما عندنا من آراء يحتاج إلى مراجعة، ووضعه على أساس التسليم الرسولي، وليس الاجتهاد الشخصي.

إن الكلام عن سُكنى الروح القدس، سواء أكان أقنوم الروح القدس ، أم المواهب فقط، هو كلام موجه لعمل الابن المتجسد، وهو كلام يمس بشكل مباشر المعمودية، والميرون، والإفخارستيا، وهي أسرار تمس دعامة الحياة عندنا.

والكلام عن الشركة في الطبيعة الإلهية يمس أقدس ما أخذناه، وهو البنوة، والحياة الأبدية، والقيامة من الأموات. فكيف يجوز لنا أن نفتح باب الكلام على صفحات المجلات أو الكتب، بدون أن نعود إلى التسليم الرسولي؟

ما الذي نريد أن نفعله بأنفسنا الآن؟ أن نقاتل بعضنا البعض، وأن نسمم أجواء الكنيسة لكي تنشأ عندنا أجيال لاتعرف إلاَّ الانقسام والجدل اللاهوتي؟ أم أن نربي أولادنا على استعمال السيف في مواجهة الفكر؟

خطير هذا الأمر الذي يحدث، وما هو اخطر منه أننا نسمح له بالاستمرار، ونصبح فعلا المريض الذي يحب مرضه.

الحوار اللاهوتي

استخدام الحوار اللاهوتي كأسلوب في التعليم كان شائعا في العالم القديم كله، وكان آباء الإسكندرية هم أول مَن استخدموه كأسلوب في تعليم الإيمان ، وشرح حقائقه. ومن هنا نشا اسم المدرسة *Catechetical* فالحوار يشكل جانباً ضخماً من التراث القبطي لا يمكن التنازل عنه، ولا يوجد ما يدعونا إلى ذلك. فهو يؤكد من ناحية، الإيمان بضرورة الاقتناع كمدخل أساسي للإيمان،كما يؤكد أيضاً أن الكلمة هي الوسيلة الفعالة، وليس السلطان أو التخويف، ويضم التراث نماذج رائعة لحوار العلامة أوريجينوس مع الأسقف هيراكلاس، ثم كيرلس السكندري مع تلميذه الشماس أنسيمس، وحوار البطريرك ثيؤدوسيوس الأول مع شماسه ثيؤدور، وهناك أكثر من حوار يأتي من الحقبة الثالثة، لعل أشهرها

كتاب المعلم و التلميذ لبولس البوشي، والذي ينسب أيضاً للبطريرك كيرلس الثالث، و لم تكن الموضوعات مسائل رعوية أو قانونية فقط، بل كانت عقائدية وطقسية أيضاً.

فالكنيسة القبطية أول مَن آمنت بالحوار، وعملت به كأسلوب في التعليم يحفظ حرية الرأي ويشرح الإ يمان ويقضي على الخلافات، ولأن قضية الحوار هامة جداً، سوف نعرض نموذجا لبعض لهذه الحوارات، وهو حو ار العلامة أوريجينوس مع هيراقليدس، فهو نموذج يقدم لنا آداب الحوار المسيحي، وهذه الآداب لا نستطيع أن نصل إليها إلاَّ بقراءة الحوار كله.

الخوف من الشك والحوار

إن قضية الشك هي قضية تربوية ولاهوتية بآن. على المستوى التربوي، نحن في المجتمعات الشرقية نخاف من الشك، ونعتبره من الأخطار الرهيبة التي تهدد الإيمان، ولكن على المستوى اللاهوتي لا يعتبر الشك على هذه الدرجة من الخطورة، كما أن اللاهوت المسيحي يميز بين الشك والارتداد، ولا يعتبرالشك بداية للارتداد، أوانعدام للخبرة. ولذلك السبب يعالج الشك بالمعرفة، و باكتشاف أسبابه. ولكن قمع الشك بالخوف والإرهاب هو تحويل الشك إلى أعماق اللاشعور المظلمة، حيث يقبع كقوة تدمير للحياة الباطنية، ويتحول إلى تطرف وعنف.

لقد كشف علم النفس المعاصر عن إن التطرف في معاملة المعارضة على الصعيد السياسي و الاجتماعي و الديني، مصدره الشك، و الخوف. وما الجنوح إلى العنف إلاَّ دليلٌ على شك قديم راسب يحاول أن يقاومه القائد العنيف اقتناعاً بأن العنف هو إثبات لصحة الإ يمان وصحة المبدأ، وهو الإثبات الظاهر الذي يفتقر إليه. لكن إذا خرج الشك إلى د ائرة النور، وعالجه حوار بناء، فإن الشك يمكن أن يتحول إلى قوة ايجابية تدفع الإنسان إلى البحث، و إلى استقصاء الأمور بطريقة تجعل المعرفة الدواء الصحيح للشك.

إلاَّ أننا لدينا مستوى من الشك لا يمكن وصفه، ولعل أفضل وصف له هو

ما حدث في إحدى كنائس الوجه البحري، عندما قام شاب خريج إحدى الجامعات، وقال إنه قرأ عن اجتماع قام به مجموعة من الكهنة، وأنه م اختاروا الأناجيل الأربعة من بين ١٠٠ إنجيل.....وعندما سألته : أين ومتى حدث هذا الاجتماع؟ كان الصمت هو الإجابة. وعندما سألته عن مصدر القصة، أشار إلى كتاب في يده صدر عن إحدى دور النشر بالقاهرة. ماذا يمكن أن يقال عن هذا الشك؟ وماذا عن شك آخر مماثل له ومن نفس النوع، وهو توجيه الشكوك إلى بعض كتب الآباء،لمجرد أن رأياً لم يعجب أصحاب الشكوك. ما هو الفرق إذن في النوعية بين الذين يدعون تحريف الإنجيل ، والذين يدعون تزوير كتب الآباء، واتهام البروتستانت والكاثوليك بتزويرها لمصلحتهم؟

لقد حدثت محاولات لتزوير كتب الآباء في العصور الوسطى، لكن هذه حقبة انتهت تمامًا، وعادت الجامعات إلى المخطوطات اليونانية القديمة، ونشأ علم دراسة الآباء، بكل ما لديه من مقاييس وأدوات نقد، كل هذ ا يجعل الاتهامات الموجهة إلى كتب الآباء أشبه بنوادر جحا.

كيف نخرج من هذ ا المأزق، إلاَّ بالعودة إلى الأسلوب العلمي الدقيق الذي تتبنى فيه الكنيسة إصدار مجلة علمية تكون رئة الحرية والبحث وتطرح موضوعات جديرة بالبحث، ويشرف عليها علماء متخصصون. هذا هو الطريق الوحيد لكي يستقر الفكر وينضج الوعي، وغير ذلك رهيب، بل الكارثة، أن تظل الاتهامات والشكوك تقودنا، وتحكم تصرفاتنا، وتلوث، ليس حياتنا الباطنية فقط، بل علاقتنا بعضنا ببعضٍ أيضاً.

والخوف من الحوار هو قضية تربوية ولاهوتية، جانبها التربوي، هو انتشار التعليم بعصمة المعلم، و الشماس و الكاهن والأسقف، وبأنه لا يجوز بالمرة مناقشة هؤلاء. وجانبها اللاهوتي هو أن التعليم بالعصمة يواكبه تعليم بأن الذين يعظون بالكنائس على كافة المستويات، إنما يتلقون الوحي والإلهام المباشر من الله، ولا يجوز بالمرة سؤالهم، حتى وإن كان ذلك في عفة وأدب.

والخوف من الحوار مصدره الأساسي أننا لم نتربَ على آداب الحوار، وتربويا

ورثت مصر عبر تريخها روح الخضوع للسلطان والخوف منه، وتحسب للمستقبل بكل خوف وحذر. والأب لايمكن مناقشته، ولايجوز مناقشته، وما قصص وضع سيجارة مشتعلة في جيبه لأنه رأى والده يمر أمامه سوى تعظيم للأب إلى درجة من الفرعونية، وبات معه االابن أشبه بالعبد رغم أن التراث نفسه يقول ''إن كبر ابنك خاويه`` أي عامله مثل أخ، لكي ينضج ويتعلم من خبرة الأب.

ومن الناحية اللاهوتية، نحن لا نحتاج لإثبات أن الكنيسة الأرثوذكسية لاتُعلِّم بالعصمة، ولا نحتاج إلى إبراز ضرورة وجود روح مجمعية، أي روح الحوار بين الجماعة للوصول إلى أفضل الآراء.

إنعدام الحوار ... ماذا يعني لاهوتيًا؟

لسنا بصدد شرح الأخطار فقط، هذه كلها أمور قد تدفعنا الأحداث أو الظروف المحيطة بنا إلى الاستهانة وعدم تقديرها تقديراً جيداً. لكن النقطة الحاسمة في الموضوع هي ماذا يعني انه لم يعد لدينا حوار، وماذا يعني أننا لا نريد الحوار؟

القضية الأولى عقائدية بحتة، ذلك أن انعدام الحوار معناه لاهوتياً انهيار الفواصل الواضحة بين المسيحية وغيرها من الديانات، فالإيمان في المسيحية نمو وتعامل وتكامل الفكر والحياة. ليس الإيمان قوالب وصيغ، بل خبرة. والذين لا يصلون إلى مستوى معين من الإ يمان لا يحسبون أنهم اخطئوا، ولاهم في حكم المرتدين، بل هم مؤمنون في طريقهم إلى الكمال.

إن انعدام هذه النظرة اللاهوتية الدقيقة إلى الإيمان، تجعل الإيمان بمثابة اعتراف شفوي لا يجوز مناقشته أو الحديث عنه أو شرحه. وهذا يعني أننا لسنا في دائرة الإله المتجسد، الذي اعتمد على الحوار مع تلاميذه لكي يصل بهم إلى إدراك الغاية، أو الغايات من أفعاله، وأعماله.

والقضية الثانية أكثر خطورة، لأننا نكاد أن نقول بأن المسيحية ديانة بلا أسرار، فوجود أسرار فائقة، ليست هي الأسرار السبعة، بل الثالوث سرالأسرار،

يعني لاهوتيا أننا لا نعتمد على القوالب والصيغ، ولكن نعتمد بدرجة أساسية على الخبرة.

وما الاعتراف بالإيمان إلاَّخبرة تنتقل إلينا عبر الأسرار الكنسية، وهي خبرة ناميةٌ لا تقف عند صيغة معينة، بل تعبر إلى ما هو ابعد من الصيغة.

والمثال الواضح على ما نقول، هو انشغال احد الكهنة بدراسة تفاصيل رؤيا حزقيال، محاولاً أن يرسم صورة دقيقة لتفاصيل الحيوانات الأربعة حاملة العرش الإلهي، والتي توصف في الليتورجية بـــ "غير المتجسدين". لقد كان من الأجدر به أن ينتبه إلى أن الليتورجية تعلمنا عدم الاستغراق في الخيال، و الاحتكام إلى دراسة الصيغة، بل تريدنا أن نقبل شرح الرؤيا كما جاء في العظات الروحية للقديس مقاريوس المصري، أوالميمرالمشهور للقديس يعقوب السروجي الذي يظهر فيه أن المركبة حاملة العرش الإلهي هي النفس الإنسانية.

ومثال آخر أكثر وضوحاً، وهو قصة ميلاد اسحق من إبر اهيم بعد سن الشيخوخة، فنحن نعبر من النص إلى المضمون، ومن المضمون إلى الخبرة الروحية. إن ميلاد اسحق هو صورة عن ميلاد كل مسيحي من الماء والروح، وصورة تدلنا على يسوع المسيح نفسه، نسل إبراهيم الذي سيولد بطريقة معجزية من العذراء القديسة مريم، و بالروح القدس، لكي يولد كل إنسان على مثاله من المعمودية. هنا القصة التاريخية، تدخل في الليتورجية، أي المعمودية، والمعمودية تشرح قصة إبراهيم لأن النقطة الأساسية التي تشرح الكل، هي ميلاد المسيح من العذراء بدون زرع بشر.

هل يمكن أن نقف عند النص ولا نعلِّم إلاَّ الصيغ؟. هذا معناه أننا لم نعد مسيحيين أرثوذكسيين، وإننا فقدنا المنهج الروحي الأرثوذكسي الذي ينقل الخبرة الحية، وهي ما نقصده في النهاية بالتسليم الرسولي.

إن استنتاج العكس، أي القضاء على الصيغ الإيمانية هو أيضاً باطل ، فهذه الصيغ جزء لا يمكن فصله عن التسليم الرسولي. لكن الأرثوذكسية لم تكن بالمرة اعترافاً بكلمات معينة، ولا كانت ترديد الإيمان بصورة معينة، فهي حياة وتذوق، واختبار.

في هذا الإطار يبدو أن انعدام الحوار هو الإيذان بأننا دخلنا عصر اللا أرثوذكسية، وأننا صرنا شكليين، وليس لنا الحرص على العمق السري، الذي تمتعت به الكنيسة القبطية في عصورها الطويلة الماضية.

هذه الشكلية نراها بوضوح في اختيار الكهنة والأساقفة، فالصوت الجميل نعمة، و القدرة على الحديث نعمة، والامتناع عن الاهتمام بالأموال نعمة ..... الخ، لكن الأساسيات لم تكن هذه النعم الصغيرة، و إنما كانت اكبر من ذلك، كانت دعامات الاختيار التي حرص عليها الأجداد، هي المعرفة بعلوم الكنيسة، وتوفر روح الأبوة لدى الكاهن أو الأسقف، بجانب روح التمييز، وهو ما رأيناه في جيلنا هذا، وما توفر لدى الذين عرفناهم وكانوا آباء حقيقيين، لم يحسدوا أبنائهم، ولا اضطهدوهم، ولا دخلوا في معارك جانبية، ولا بحثوا عن بطولات زائفة لنيل صيت ذائع أومديح. كانوا حقاً آباء، ولا زال بعضهم يجلس اليوم في مكان أثناسيوس وكيرلس وانطونيوس الكبير، أما الذين لا يجلسون، فالشعب يعرفهم ويوقرهم من اجل نعمة الكهنوت.

نموذج للحوار اللاهوتي
الحوار مع هيراقليدس[1]

بعدما وجه الأساقفة المجتمعون عدة أسئلة خاصة بإيمان الأسقف هيراقليدس، وطالبوه بالاعتراف أمام الحاضرين جميعا بالإيمان الذي يؤمن به، وبعد ما عبر كل إنسان عما يعتقده، ووجه بعض الأسئلة، قال هيراقليدس :

أنا أيضاً أؤمن بما ذكرته الكتب المقدسة، وهو في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله، كل شيء به كان ،وبغيره لم يكن شيء مما كان (يو ١ : ١ــ ٣)، وتبعا لذلك نحن نؤمن بذات الإيمان الذي تعبِّر عنه هذه الكلمات ، ونؤمن بأن المسيح أخذ جسداً، وأنه وُلِدَ، وأنه صعد إلى السماء بالجسد الذي قام به، وأنه جالس عن يمين الآب، وأنه سوف يأتي لكي يدين الأحياء والأموات، لأنه إله وإنسانٌ.

أوريجينوس : ما دمنا قد بدأنا بالاستفهام عن بعض الموضوعات، يمكننا أن نقول شيئاً عن الموضوع الذي تدور حوله الأسئلة، وأنا أتكلم الآن أمام الكنيسة الحاضرة بأسرها، والتي تسمعني، لأنه ليس من الصواب أن يكون الاختلاف بين كنيسة وكنيسة في معرفة الإيمان، لأننا لسنا كنيسةً مزيفةً. أنا أسألك أيها الآب هيراقليدس : الله هو ضابط الكل غير المخلوق، الإله العالي على الإدراك خالق كل شيء، هل تؤمن بهذه العقيدة؟

١ــ عثر على البرديات التي تضم هذا الحوار في عام ١٩٤٥ م في طرة، جنوب القاهرة. والحوار هو محضر الجلسة التي اشترك فيها العلامة أوريجينوس، والأساقفة. ربما كان الأسقف ديمتريوس الذي يظهر في هذا الحوار، هو البابا ديمتريوس الكرام، وربما كان ديونيسيوس هو بدوره، البابا ديونيسيوس. وقد نشر النص اليوناني مع ترجمات انجليزية، وفرنسية، وألمانية. اعتمدنا على النص اليوناني الذي نشرته الأكاديمية الألمانية في برلين مع مراجعة على النص الانجليزي الذي نُشر في المجلد الثاني من سلسلة المكتبة المسيحية الكلاسيكية ص ٤٣٧ ــ ٤٥٥ وتحت عنوان Alexandrian Christianity ، وقام بالترجمة أستاذ الآباء بجامعة كامبريدج في ذلك الوقت Chadwik .Henry

هيراقليدس : نعم، هذا هو ما أؤمن به.

أوريجينوس : ويسوع المسيح أيضاً هو في صورة الله (في ٢ : ٦)، وهو آخر (متمايز) غير الإله الذي هو صورته، ولكنه إله قبل أن يجيء في الجسد، ألا تعتقد بذلك؟

هيراقليدس : نعم هو إله من قبل أن يأتي في الجسد.

أوريجينوس : هل هو إلهٌ قبل أن يأتي في الجسد، أم لا؟

هيراقليدس : نعم كان.

أوريجينوس : هل هو متمايز عن الإله الذي يحمل هو صورته؟

هيراقليدس : واضح أنه غير الآخر الذي يحمل صورته، وطالما أنه صورة خالق كل الأشياء، فهو متمايز عنه.

أوريجينوس : هل حقاً أنه إله، وابن الله، الإله الابن الوحيد، بكر كل خليقة (كو ١: ١٥) ولذلك لا خوف من أن نقول إنه بشكلٍ ما نعتقد بإلهين، وبشكل آخر نعتقد بإله واحد؟

هيراقليدس : ما تقوله واضح، ولكننا نؤكد أن الله هو ضابط الكل، الإله الذي بلا بداية وبلا نهاية، يحوي كل شيء، ولا يحتويه شيء،وإنه هو اللوغوس، ابن الله الحي، إله وإنسان، الذي به خُلِقَ كل شيء (يو ١ : ٣) كروح هو إلهٌ. وإنسانٌ؛ لأنه صار إنسانا عندما وُلِدَ من العذراء.

أوريجينوس : يبدو لي انك لم تُجِب بعد على سؤالي، اشرح لي ماذا تعني، ربما لأنني عاجز عن أن أتتبعك، هل الآب إلهٌ؟

هيراقليدس : بكل يقين.

أوريجينوس : هل الابن متمايز عن الآب؟

هيراقليدس : نعم، وإلاَّ كيف يُدعى "الابن" إذا كان مثل الآب، آباً؟

أوريجينوس : مادام أنه متمايز عن الآب، هل الابن نفسه إلهاً؟

هيراقليدس : نعم هو نفسه إلهٌ.

أوريجينوس : وهل هما إلهين في وحدة؟

هيراقليدس : نعم.

أوريجينوس : هل تعترف بإلهين؟

هيراقليدس : نعم، ولكن القوة (الجوهر)هو واحد.

أوريجينوس : ولكن، لئلا يعثر إخوتنا في عبارة أننا نؤمن بإلهين، علينا أن نصوغ العقيدة بدقة، ونوضح بأي معنى هما فعلا إلهين، وبأي معنى الإلهين واحد؛ لأن بعض الأسفار المقدسة قد علَّمت أن بعض الأشياء، مع كونهما اثنين، إلاَّ أنهما واحد في نفس الوقت. وليس فقط الأشياء التي هي اثنين، بل أيضاً بعض الأمور أكثر من اثنين، وهذه الكثرة هي واحد. ومسئوليتنا الآن ليس تضخيم المشكلة وتعقيدها، بل العبور من دائرة المشكلة إلى إيضاح الموضوع من اجل الشعب البسيط الذي لا يقدر على أن يمضغ اللحوم، بل يشرب اللبن. هؤلاء سوف نقدم لهم التعليم شيئا فشيئا، حتى يتعودوا على سماع العقيدة. وتبعا لذلك علينا أن نبين ما هي الأمور التي وُ صِفَتْ في الكتاب المقدس بأنهما اثنين وواحد، وما هي الفقرات الخاصة بهذا في الكتاب المقدس؟ آدم شخص واحد، وحواء زوجته شخص آخر. آدم متمايز عن حواء زوجته، وحواء متمايزة عن زوجها. ومع هذا قيل في قصة خلق العالم إن الاثنين واحد "ويكون الاثنان جسدا واحدا" (تك ٢ :٢٤) وهذا يعني شخصان يصبحان جسداً واحداً. ولاحظ أنه في حالة آدم وحواء لم يقل إنهما روحٌ واحد، أو إنهما يصيران نفساً واحدة، وإنما يكونان جسداً واحداً. وأيضاً البار متمايز عن المسيح، ومع ذلك يقول عنه الرسول إنه روحٌ واحد مع المسيح "أمَّا مَن التصق بالرب، فهو روح واحد" أوليس من الصواب أن المؤمن من طبيعة خاضعة واقل، بينما المسيح من طبيعة إلهية ممجدة ومباركة؟ ولكن هل هما ليسا بعد اثنين؟ نعم، ليسا بعد اثنين؛ لأن الرجل والمرأة "ليسا بعد اثنين، بل جسداً واحداً"،

والإنسان البار والمسيح ''روحٌ واحد''، (١كو ٦ : ١٧)وعلى نفس القياس يظهر أن الكلام عن الله الآب إله العالم، فمخلصنا وربنا ليس جسداً واحداً مع الآب، ولا روحاً واحداً، بل أعظم من الروح والجسد، إله واحد.

والكلمة المناسبة التي تعبِّر عن اتحاد مخلوقين، هي الجسد. والكلمة المناسبة التي تعبِّر عن اتحاد الإنسان البار والمسيح، هي الروح. أمَّا الكلمة المناسبة التي تعبِّر عن وحدة الآب والمسيح، فهي ليست الجسد ولا الروح، وإنما ما هو أعظم من هذا، أي اللاهوت. وهذا هو ما نفهمه من معني الكلام ''أنا والآب واحد'' (يو١٠ : ٣٠) وعندما نصلِّي، علينا أن ننتبه إلى وجود الأقنومين بسبب الذين يحبون الكلام عن اثنين، أمَّا الذين يحبون الكلام عن الواحد، يمكننا أن نتكلم عن اللاهوت الواحد. وبذلك نحترس، فلا نقع في الاعتقاد بآراء الذين فرزتهم الكنيسة، وهم الذين سقطوا في بدعة التوحيدية (المونوأرخيين)، فأنكروا تمايز الابن عن الآب، وهو ما أدَّى إلى إنكار الآب نفسه، ولا نسقط أيضاً في التعاليم التجديفية التي تنكر إلوهية المسيح.

وماذا تعني الأسفار الإلهـــية بقولها : '' لا يوجد معي إله آخر.... أنا وليس معي آخر'' (أش ٤٣ : ١٠ــ تث ٣٢ : ٣٩) هذه الأقوال لا تعني أن الكلام هنا عن الواحد الآب إله العالم، كمنفصل عن المسيح، وحتما ليس المسيح كمنفصل عن الله. وإنما الكلام هو عن الآب والابن كما هو واضح في قول يسوع :''أنا والآب واحد'' (يو ١٠: ٣٠). من الضروري ان ندرس هذه العقائد لأن البعض أثاروا حولها أسئلةً كثيرةً أزعجت الكنيسة، وكثيرا ما يحدث أن يكتب البعض صيغ معينة ويطلبون إمضاء الأسقف، وأيضاً الذين يشكون فيهم، بل يطلبون أن يوقعوا بإمضائهم على هذه الصيغ

بحضور الشعب كله، لكي لا يحدث جدل أو اضطراب حول هذا السؤال. وبسبب ذلك، وبإذن من الله، وثانياً من الأساقفة، وثالثاً من القساوسة والشعب أيضاً، سوف أشرح هذا الموضوع. يقام القداس في كل مكان باسم الله الآب الذي توجه إليه الصلاة في يسوع المسيح الذي كاله هو مثل الآب. ولذلك نحن لا نقدم مرتين إلى إلهين، بل نقدم إلى الإله من خلال الإله. وهنا، أنا أمس نقطة خطيرة، ومع ذلك فإننا لا نخرج عن الإيمان الذي تسلمناه في المعمودية، ولا يمكن لأحد مهما كان مركزه أو سلطته أن يتدخل في موضوعات العقيدة؛ لأن مثل هذا التدخل يعقِّد الأمور، ويخلق الكثير من المناقشات، ولا يجب أن يتدخل أحدٌ كأسقف أو قسٍ، أو شماسٍ، أو واحد من الشعب، ويستغل مكانته لكي يخلق جدلاً في الكنيسة، وإنما يجب أن يسود الذي استقر في الكنيسة من تسليم. والنقطة الثانية في هذا الموضوع، هي أن البعض يثيرون الاعتراضات على نَسَبَ الإلوهة التي تحدثت عنها إلى يسوع المسيح كشيء خاص به، وذلك عندما يفكرون في موته وقيامته. وها أنا قد اعترفت أمام الكنيسة بإيماني بأن الجسد الذي قام كان ميتاَ (جثة). ومادام مخلصنا وربنا قد أخذ جسداً، لنفحص ما هو هذا الجسد. الكنيسة وحدها تختلف عن كل الهرطقات التي تنكر القيامة؛ لأن الكنيسة وحدها تعترف بأن القيامة تحدث لجسدٍ مات فعلا. وبرهان القيامة ظاهر من قيامة الباكورة، أي المسيح (١كو ١٥ : ١٢). وهذا يعني أن الموتى سيقومون، وبالضرورة، يؤدِّي هذا إلى الكلام عن جسده كجسدٍ ميِّتٍ، ولو أنه لم يمُت، ويصبح جسداً ميتا لُفَ بالأكفان، ودفن في القبر، ودُهن بالأطياب، وحدث له كل ما حدث لأي جسد ميِّت يدفن فى قبر (مت ٢٧: ٥٩ — مر ١٥ : ٤١ — لو ٢٣ : ٥٣)، وهو ما لا يمكن أن يحدث لجسد روحاني؛ لأنه من المستحيل تماماً أنَّ

الروحاني يصبح مثل جثة تُدَفن، مثل استحالة تحول الروحاني إلى شيء محسوس. ولو كان من الممكن أن يتحول الروحاني إلى جسد ميت، لكان من الحتمي أن يدخلنا الخوف حتى بعد القيامة نفسها، لئلا يتحول جسدنا في القيامة، والذي يقول عنه الرسول: "يُزرع حيوانياً، ويقوم روحانياً" (١كو ١٥ :٤٤)، وهو ما يعني إمكانية الموت بعد القيامة. ولكن الرسول يؤكد أن المسيح من بعد قيامته لا يموت مرةً ثانيةً (رو ٦ : ٩) وهذا الكلام لا ينطبق على المسيح وحده، بل أيضاً الذين هم في المسيح (١كو ١٥ : ٢٣) ، فهؤلاء عندما يقومون من الموت لا يموتون وإذا وافق الكل على العبارات التي ذكرتها، وبشهادة الشعب الحاضر، يصبح هذا القرار الصادر عن هذا المجمع قانونياً وملزماً للكل. ماذا تبقى لنا لكي نقوله عن الإيمان؟ هل توافقني يا مكسيموس على ما ذكرت؟ أجب.

مكسيموس : أتمنى أن يكون كل واحد من الحاضرين متمسك بذات التعاليم التي أتمسك بها. أمام الله والكنيسة، أنا أوقع بإمضائي وأعلن تعهدي بما ذكرت. ولكنني عندما أثرت بعض الأسئلة فقد كان الدافع إلى ذلك أن لا يكون لدّي أي شك أو عدم وضوح بالمرة، والإخوة يعرفون أنني قلت سابقا إنني احتاج إلى معونة أخي وإرشاده في الموضوعات الخاصة بالإيمان، وسؤالي هو : إذا كان الروح، قد أسلمه المسيح في يدي الآب حسبما قيل "يا أبتاه في يديك استودع روحي" (لو ٢٣ : ٤٦) وإذا كان الجسد بدون روح ميِّت، ويوضع في القبر، فكيف تفتح القبور، وكيف يقوم الموتى؟

أوريجينوس :لقد تعلمنا من الأسفار المقدسة أن الإنسانَ كائنٌ مُركب، فالرسول يقول : وإله السلام نفسه يقدِّسكم بالتمام، ولتُحفظ روحكم، ونفسكم، وجسدكم كاملةً بلا لوم عند مجيء ربنا يسوع المسيح" (١تس ٥ : ٢٣). والروح هنا ليس هو الروح القدس، وإنما أحد العناصر

التي تكوّن الإنسان، لأن نفس الرسول يخبرنا عن الفرق بين الروح القدس، والروح الإنسانية في، فلو كان الكلام عن: قوله : "والروح يشهد لأرواحنا أننا أبناء" (رو ٨ : ١٦)، الروح يعني الروح القدس، فمن الذي يشهد لأرواحنا؟ وإنما لأن ربنا ومخلصنا أراد أن يخلِّص الإنسان كله، وحسب إرادته شاء أن يخلِّص الجسد، وأن يخلِّص النفس أيضاً، وأن يخلِّص الروح، وكان من المستحيل أن يخلِّص الإنسانَ كله، ما لم يكن المسيح قد اتحد بكل مكونات الإنسان. ولذلك، الذين يقولون إن جسد المخلص هو جسدٌ روحاني هم في الحقيقة ينكرون خلاص الجسد، ونفس الكلام ينطبق على الروح الإنسانية التي يقول عنها الرسول :"لا يعرف أحد ما في الإنسان إلاَّ روح الإنسان الذي فيه" (١كو٢ : ١١)، فلو لم يأخذ الربُ روحاً إنسانيةً، ما خلُصت الروح الإنسانية، ولكن عندما أخذ الروح الإنسانية التي أشار إليها الرسول،خلُصت الروح، وعند الآلام انفصلت هذه العناصر الثلاثة، أما عند القيامة، فقد اتحدت. كيف انفصلت بالآلام؟ الجسدُ في القبر، والنفسُ في الجحيم، والروحُ في يدي الآب. النفس في الجحيم كما هو مكتوب :"لأنك لم تدع نفسي في الجحيم" (مز ١٦ : ١٠ ــ أع ٢ : ٢٧)، وإذا كانت الروح الإنسانية قد استودعت في يدي الآب، فقد تم ذلك كوديعة، ويوجد فرق بين الهبة والوديعة، وما يسلِّمه الإنسان تماماً. فالذي يعطي وديعةً يفعل ذلك بقصد استرجاع ما أودعه. ولماذا أعطى الروح وديعة في يدي الآب؟ إجابة السؤال تفوق فهمي وقدرتي، فليس لدِّي المعرفة التي تجعلني قادراً على شرح الأسباب التي جعلت الجسد يرقد في القبر، ولا يترل إلى الجحيم؟، ولا لماذا لم تترل الروح إلى الجحيم؟ ولا يقدر الذين يدَّعون أن جسد يسوع كان جسداً روحانياً أن يبرهنوا لنا على أنه نزل بالجسد إلى الجحيم، ولذلك

أعطى روحه كوديعة في يدي الآب حتى يقوم من الموت فيستردها من الآب، وفعلا أخذها، متى؟ ليس في لحظة معينة في قيامته، وإنما بعد قيامته. وشهادتي على ذلك هي نص الإنجيل، عندما قام الرب يسوع المسيح من الأموات قابلته مريم المجدلية ، وقال لها :"لا تلمسيني" (يو ٢٠ : ١٧)، فقد أراد لمن يلمسه أن يلمسه كله لكي يستفيد جسده من جسد الرب، ونفسه من نفس الرب، وروحه من روح الرب، وهو ما دعاه لأن يقول :"لأني لم أصعد إلى أبي"، وبعد صعوده إلى الآب جاء إلى تلاميذه. ولماذا صعد إلى الآب، لكي يأخذ روحه التي كانت وديعة لدى الآب.

إن كل الأسئلة الخاصة بالإيمان التي أزعجتنا، قد فحصناها. ولكن علينا أن نتذكر أننا أمام كرسي الدينونة، لن نُدان على الإيمان وحده (يع ٢ : ٢٤) ، كما لو كانت حياتنا لن تفحص أو تدان؛ لأننا سنُدان على الإيمان والحياة، ولذلك علينا أن ندقق في الإيمان، لكي ندقق في الحياة. نحن نتبرر إذا كان الإيمان والحياة صحيحان. ونُدان إذا كان كلاهما غير صحيح. ولكن يوجد البعض الذين لن يدانوا على الاثنين : الإيمان والحياة، وإنما على واحد من الاثنين، وذلك إذا كان في الإيمان انحراف، وليس لأن حياته ينقصها السيرة الحسنة. والبعض سوف يدانون ليس بسبب إيمانهم، وإنما بسبب حياتهم، لأنهم عاشوا حياةً بلا هدف. ورأيي هذا تعبِّر عنه أمثال سليمان، عندما تشرح الإيمان والمعرفة، وأسلوب الحياة الذي نعتمده "مَن الذي يفتخر، بقلبه النقي، ومَن يمكنه أن يقف في المحاكمة وهو بلا خطية" (أم ٢٠ : ٩) والفرق بين الفريقين، هو الفرق بين القلب، ويعني الأفكار، والخطية، وهي تعني الأعمال. ومَن الذي يفتخر بقلبه النقي إلاَّ مَن لم يتنجس بالمعرفة، التي تُدعى كذباً معرفةً (١تى ٦ : ٢٠)، أي لم يتنجس بالزور؟ ومَن الذي يتقدم ويقول إنه بلا

خطية، أي الذي لم يخطئ في التطبيق العملي؟ فإذا شئنا أن نخلص، فلا يجب علينا أن نهتم بالإيمان وننسى سلوكنا في هذه الحياة، أو أن نثق في سلوكنا وحده. علينا أن نراعي، وندرك، ونؤمن أنه على أساس الاثنين إمَّا أن تبرأ ساحتنا وننال الغبطة، أو ننال العكس.

والأمور التي ندان عليها ليست فقط الخطايا البشعة والمخيفة، والتي لا يجوز أن نذكر أسمائها (أف ٥ : ٩) ، وهي خطايا الحياة، وخطايا الفكر، بل : خطايا يعتبرها عامة الناس بلا أهمية، وهو ما يجعل الرسول يضع جنباً إلى جنب الخطايا المستترة، والقبيحة، والأخرى الثانوية التي تعتبر عند البعض بلا قيمة. وماذا يقول؟ ''لا تضلوا، لا الزناة، ولا عبدة الأوثان ولا فاسقون، ولا مأبونون، ولا مضاجعو الذكور، ولا سارقون، ولا طماعون، ولا سكيرون، وكما ترون، مع هذه : ولا شتامون، يرثون ملكوت السموات‘‘ الخطايا البشعة، مثل الجنسية المثلية، والفسق، والعهارة، يضع السكر والشتيمة، وهي خطايا تعتبر ذات تأثير ضئيل، ولذلك لكي ندرك أننا لن ندان عن الخطايا البشعة فقط، سوف نحرم من الملكوت، بل بسبب هذه الخطايا التي تعتبر ضئيلة. لذلك لا يجب علينا أن نشتم، أو نسكر، أو نخطف،أو نسرق، أو نفعل أي شيء خطأ، حتى لا نكون ضالين[٢]

إذا كان لديك أي أسئلة خاصة بقانون الإيمان، عليك أن تذكرها، وسوف نجيب عنها بالتفصيل من الأسفار.

ديونيسيوس : هل النفس هي الدم؟

٢- في شرح كورنثوس الاولى ٦ : ٩ ـــ ١٠ يقول أوريجينوس''إن اغلبنا يعرف داخليا، وفي ضميره، إنه غير مذنب، ولم يرتكب هذه الرذائل، أمَّا بالنسبة لباقي الخطايا، فأنا نفسي أخشى أن أكون قد أثمت فيها‘‘ J.T.S.1X, 1908,P 367 . وفى شرح ارميا (٢٠ : ٣)، يقول العلامة أوريجانوس عن ١ كورنثوس(٦ : ٩ ـــ ١٠) ''مَن منا لا يشعر في قلبه بأنه شرب الخمر بدون اعتدال، وبلا حكمة؟ مَن منا برئ من السرقة؟ وفي الحقيقة إن هذه الخطايا الصغيرة يعاقبنا الله عليها كما يعاقب على الرذائل الخطيرة، ولكن عقاب هذه الخطايا الصغيرة يتم سريا Mystery وحسب تدبير إلهي لا يفهمه العامة من المؤمنين الذين يجهلون هذه الأمور، وهؤلاء قد يخدعون، ويفقدون الرجاء؛ لأنهم لم يفهموا إن عقاب الله وكلمات الدينونة القاسية هي دواء وليست قصاص‘‘.

أوريجينوس : لقد لاحظت ــ وأنا أتكلم عن دراية بالأمور ــ إن بعض الناس هنا، وفي الأماكن المجاورة ، يتوهم أن النفس بعد خروجها من هذه الحياة تكون عاجزةً عن الشعور، وأنها تظل في القبر في الجسد، وقد اضطررت إلى الرد على هذا الرأي بكل قوة، وبشدة جاوبت هيراقليدس الآخر، وسيللر *Celer* الذى خلفه، وقد أجبت بشدة حتى أنني فضلت أن اترك الموضوع كليةً، وأنصرف إلى مكان آخر. ولكن من أجل كرامة التعليم طلب أن نناقش الموضوع، واتفقنا على صيغة كتبها هو، وأبرأ هيراقليدس نفسه أمامنا، وأمام الله بصيغة الاعتراف الأرثوذكسية التي أعلنها.

ومرةً ثانيةً نواجه نفس السؤال الذي وجهه إلينا ديونيسيوس المحبوب، وهو ما يضطرنا إلى الإجابة، وسوف أحدد الفقرة الخاصة بالموضوع من الكتاب المقدس، وهي الفقرة التي أزعجتهم وما يناسبها من فقرات أخرى، حتى لا يظن أحد أننا نحذف شيئا، وبقوة الله سوف نجيب على الأسئلة حسب طلبهم. الفقرة موضع الاهتمام هي : "نفسُ كل حي في الدم". هذا النص قد أزعج الذين لم يفهموه. وأيضاً "لا تأكل النفس مع اللحم، احترس لنفسك حتى لا تأكل الدم، فتأكل النفس مع الدم" (لا ١٧ : ١١ ــ تث ١٢ : ٢٣)، وربما هذا النص الأخير يزعج البعض أكثر من النص السابق. والنصوص الأخرى لا تتحدث عن نفس النقطة، أي أكل النفس عندما يؤكل الدم. من ناحيتي، وعلى قدر فهمي ومع صلاتي لطلب المعونة لقراءة الكلمات الإلهية، لأننا عندما نقرا الإلهية[٣] نحتاج إلى معونة، حتى لا تقبل عقولنا أفكاراً مغايرةً للحق. والنقطة الأساسية التي وجدها هي أن الكائنات "غير المحسوسة" تُطلق عليها نفس الأسماء التي تطلق على "المحسوس"، والمثال على

٣- يقول أوريجينوس :"بدون النعمة والصلاة، لا يمكن فهم الأسفار بشكل صحيح". عظة على حزقيال ٢ : ٢

ذلك أن المحسوس، وهو الجانب المنظور من الإنسان، يُطلق على الحياة الداخلية، أو الإنسان الداخلي، وهو ما يجعل الكتاب المقدس يصف الإنسان بأنه إنسانين "وإن كان إنساننا الخارجي يفنى، فالداخلي يتجدد يوماً فيوماً"، و"أُسر بناموس الله حسب الإنسان الداخلي" (٢كو ٤ : ١٦ ـ رو ٧ : ٢٢)، وهذان الإنسانان، يوضح الرسول تمايزهما في كل مكان من رسائله، واعتقادي أن الرسول لم يخترع هذه الفكرة، وإنما عبَّر عن الإنسانين، لأنه أدرك أن هناك بعض الفقرات في الأسفار المقدسة، يساء فهمها، مثلما يتصور البعض أن قصة الخليقة تتكرر بعض أجزائها دون هدف مقصود، لا سيما بعد أن أشارت القصة في البداية إلى خلق الإنسان، ونقرأ : "وأخذ الله تراباً من الأرض، وكوَّن الإنسان"(تك ٢ : ٧) ، والخطأ الذي يقع فيه البعض هو أنهم يتصورون أن الجسد الإنساني هو صورة الله التي أشارت إليها القصة في البداية (تك ١ : ٢٦)، ويستنتجون من هذا أن الله له شكل إنساني، أو أن له جسداً بشرياً. ولكننا لسنا مجانين حتى ننطق بهذا أو نتصور أن الله مُركَّبٌ من عنصرين، أحدهما سام، والآخر وضيع، وأن الإنسان على صورة الله، أي خُلق على نفسٍ تكوين الله المركَّب من عنصر سام، وعنصر وضيع، أو أن صورة الله في الإنسان هي العنصر الوضيعً فقط، أي الجسد، وليس العنصر السامي. هذه النقاط دقيقة جداً وتحتاج إلى سامعين يملكون دقة التفكير، ولذلك أحذِّر الذين يسمعونني، حتى لا أُتهم بأنني طرحت القدسَ للكلاب، أي للنفوس التي لا تخجل. والذين ينبحون مثل الكلاب، هم الذين لا يفكرون في شيء إلاَّ في الزنا، والسلوك الشاذ، ولا يتصرفون إلاَّ مثل الكلاب التي تنهش ضحاياها، وأمام هؤلاء لا يجوز أن ألقي بالقدسات.

وكذلك أحذِّر الذين يسمعونني الآن أن لا يجعلونني عرضةً للاتهام

بأنني ألقيت بالجواهر الغالية التي نحاول أن نجمعها مثل تجار حكماء، أمام الغارقين في دنس الجسد، والذين يوصفون بأنهم خنازير(مت ٧ : ٦). إنني اعتقد أن الناس الذين ينحدرون على الدوام، ويتمرغون في أوحال الحياة، ولا يحاولون بالمرة أن يجربوا أن يعيشوا في طهارة وقداسة حياة، كل واحد من هؤلاء يتشبه بالخنزير، فإذا كان ملكوت الله أشبه بتاجر يبحث عن الجواهر الغالية، وأنا قد وجدت هذه الجواهر النادرة والغالية، ودفعت فيها ثمناً، هو التعب والإرهاق، وعدم النوم، فإذا طرحتهم أمام النفوس التي تعشق اللذات، والغارقين في دنس الجسد والنجاسة، فإنني سوف أُحسب مذنباً بدوري، لأنني ألقيت بالجواهر أمام الخنازير. وعندما تحصل الخنازير على اللآلئ، ولا تدرك جمالها الفائق وقيمتها، تدوسها تحت أقدامها بالأقوال الشريرة، التي تذاع ضد الأمور الصحيحة، وهم لا يدوسون فقط على اللآلئ تحت أقدامهم، بل يلتفتون إلى الذين أعطوهم اللآلئ ويمزقوهم إرباً إرباً.

أتوسل إليكم، تجدَّدوا، واقبلوا أن تتعلموا أن فيكم قدرةً للتجديد، وأن تخلعوا صورة الخنزير، أي النفس النجسة. وشكل الكلب، وهي الإنسان الذي ينبح ويشتم. ومن الممكن أن نتجدد عن صورة الثعابين، فالإنسان الشرير يشبه الثعبان أو الحية، ولذلك قيل عن البعض إنهم ''أولاد الأفاعي'' (مت٢٣ : ٣٣) فإذا توفر لنا الإدراك بأن فينا قوة للتجديد من صورة الثعابين، والخنازير، والكلاب، فعلينا أن نتعلم من الرسول أن هذا التجديد متوقف علينا. وهو يقول : ''فنحن بوجه مكشوف، نرى مجد الرب ونتجدد إلى تلك الصورة عينها'' (٢كو ٣ : ١٨).. فإذا كنت مثل الكلب النابح، فإن الكلمةَ جاء لكي يجددك، ويحولك من كلب إلى إنسان، وإن كنت نجساً، فإن الكلمةَ جاء إلى نفسك وأخضعك لعلاجٍ، لكي تتجدد على

صورة الكلمة وتتحول من خترير إلى إنسان. وإذا كنت حيواناً مفترساً، وسمعت عن الكلمة الذي يستأنس ويغيِّر الحيوانات إلى بشر، فإنك بإرادة الكلمة لن تُدعَى بعدُ حيةً، ولا نسل أفاع. ولو كان من الصعب على الذين سمعوا هذا الوصف بأهم أولاداً أفاع بسبب ما في نفوسهم من شرور، ما كان المخلص قد طلب منهم "أن يصنعوا ثمارًا تليق بالتوبة" (لو ٣ : ٨ ــ مت ٣ : ٨) (٨، وبعد التوبة أنت لست حيةَ، ولا نسل أفاع.

وطالما أننا نتكلم عن الإنسان ونبحث إذا ما كانت نفس الإنسان ليست الدم، وطالما أن هذا الموضوع يتطلب منا أن نتكلم عن التعليم بإنسانين، وهذا ما جعلنا ندخل إلى بعض الأعماق الخفية، أرجوكم ألاَّ تجعلوني أُتهم بأنني ألقيت اللآلئ أمام الخنازير، والقدسات للكلاب، أو التخلي عن الأمور الإلهية للحية، أو معطيا إياها نصيباً في شجرة الحياة. ولكي لا ينالني هذا الذنب، أقول تجددوا، اطرحوا الشر، الشجار، الغضب، الجدل، انقسام الرأي (كول ٣ : ٢٨)، وأرجو أن لا يحدث بينكم انقسام في: المستقبل، بل يكون لكم فكراً واحداً، ورأياً واحداً (كو ١ : ١٠).

إن الكلام يجعلني أخجل، ولكن عدم الكلام أيضاً يجعلني أخجل، ولكن من أجل الذين يستحقون كلام التعليم أتكلم، لئلا أُتهم بأنني حرمت الذين يفهمون من كلمة الله. بسبب غير المستحقين أنا أتردد في الكلام، ولنفس الأسباب السابقة التي ذكرتها، وحتى لا يقال عني إنني ألقيت القدسات للكلاب، واللآلئ للخنازير. لقد كان دأب يسوع أن يميز السامعين الذين من الداخل، والذين من الخارج. وللذين لا يتبعونه كان يتكلم بأمثال، أمَّا شرح الأمثال فقد قاله للذين في الداخل، أي الذين دخلوا معه البيت، لكي يجلسوا معه (مر ٤ : ١١ ــ مت ١٣ : ٣٦) والبقاء في الخارج، ودخول البيت

له معنى سري أشار إليه الرسول بقوله : ''لماذا أدين اللذين هم من الخارج'' (١كو ٥ : ١٢)؟ كل خاطئ هو خارج، ولذلك الذين هم من خارج، هؤلاء يسمعون الأمثال، لعلهم يتركون كل شيء خارجاً، ويدخلون البيت. والمعنى السري، هو أن الذي يدخل البيت يصبح تلميذاً حقيقياً للمسيح، ودخول البيت يكون بالتمسك بثبات بعقائد الكنيسة، والحياة حياةً مقدسةً حسب تعليم الكنيسة، وهذا يوضح لنا أن الداخل والخارج كلمات لها معاني روحية فقط، وهو ما يشرح لنا الكلام عن الإنسان الخارجي، والإنسان الداخلي.

لقد رأيتم بعد هذه المقدمة الطويلة، التي قصدت بها إعداد الذين يسمعونني، وفي الحقيقة أنا متردد في الكلام؛ لأنني كلما اقتربت من النقطة التي أريد أن اشرحها، أجد نفسي أؤجل الكلام. فما هو هدفي من هذا؟ إعداد الكلام بدقة، لكي اشفي نفوس الذين يسمعونني.

عند خلق الإنسان، خُلِقَ الإنسان أولاً على صورة الله (تك ١ : ٦)، و لم يكن في هذا الإنسان أي عنصر مادي. فالذي خُلِقَ على صورة الله ليس مصنوعاً من مادةٍ، وهو ما يعبِّر عنه سفر التكوين بقوله : ''وقال الله نخلق الإنسان على صورتنا كشبهنا'' (تك ١ : ٢٦ ــ ٢٧)، فعندما خلق اللهُ الإنسانَ، لم يأخذ تراباً في هذه المرحلة، وإنما في المرحلة الثانية أخذ التراب. أمَّا في المرحلة الأولى، فقد كان الخلق حسب المثال والصورة، واعتبارنا أن صورة الله تفوق كل ما هو مادي أو محسوس، لا يشهد لها موسى فقط، بل الرسول أيضاً بهذه الكلمات : ''اخلعوا الإنسان العتيق مع كل أعماله، والبسوا الإنسان الجديد، الذي يتجدد بالمعرفة حسب صورة خالقه'' (كول ٣ : ٩). في هذا الإطار، كل واحدٍ منّا فيه إنسانين. ولماذا تقول الأسفار المقدسة إن نفس كل كائن حي في دمه؟ هذه مشكلة

كُبرى، ولكن حلها سهل، فكما أن الإنسان الخارجي له نفس اسم الإنسان الداخلي، هكذا أيضاً الأعضاء الروحية الداخلية لها نفس أسماء الأعضاء المحسوسة، حتى أن كل عضو محسوس يحمل ذات الاسم الذي يحمله العضو الداخلي غير المحسوس(٤).

الإنسان الخارجي له عينان، والإنسان الداخلي له عينان أيضاً، كما قيل :"أنر عيني لئلا أنام نوم الموت" (مز ١٢ : ٣)، وهذا لا يشير إلى العينين المحسوستين، ولا إلى نوم الجسد، ولا الموت الطبيعي، وإنما إلى ما هو في الداخل. كما قيل :"وصيةُ الربِ تضيء العينين" (مز ١٨ : ٨) وحفظ وصية الرب لا يمنحنا قوة الإبصار الجسدي، وإنما بحفظ الوصية الإلهية تزداد قدرتنا العقلية على الرؤية الروحية. وعيوننا الداخلية ترى بوضوح شديد "أفتح عيني، فأرى عجائب من شريعتك" (مز ١١٩ : ١٨)، وهذا لا يعني أن عيوننا عليها حجاب، بل يعني عيني العقل. ويسوع وحده هو الذي يرفع الحجاب عن هاتين العينين، لكي نفهم الأسفار، وندرك أسرارها.

الإنسان الخارجي له أذنان، والإنسان الداخلي له أذنان أيضاً "مَن له أذن للسمع، فليسمع" (مت ١١ : ١٥)، وكل الذين سمعوا هذه الكلمات كانت لهم الآذان المحسوسة كأعضاء ظاهرة للسمع، ولكن لم ينجح الكل في تنقية الآذان الداخلية. والأُذن الداخلية في الواقع ليست من كياننا المخلوق الطبيعي، آذاننا الخارجية وحدها هي جزء من طبيعتنا. ولان الآذان المحسوسة هي جزء من طبيعتنا، يقول النبي : "اسمعوا أيها الصم وانظروا أيها العميان، مَن هم الصم إلاَّ عبيدي، ومَن هم العميان إلاَّ سادتهم؟ وحتى عبيد الله بالطبيعة عميان" (أش ٤٢ : ١٨). والصمم هو ما نجلبه على أنفسنا، وعلينا أن

٤- يقول العلامة أوريجينوس :"إن أسماء أعضاء الجسد من الخارج، تُعطى للنفس من الداخل"، ضد كلسوس ٧ : ٣٤ ــ المبادئ ١ : ١ ، ٩ ــ عظة على حزقيال ٣ : ٨

ننتبه إلى ما أقوله لأنه سوف يؤثر في فهمنا جميعا.

من الضروري أن نتكلم عن الإنسان الداخلي، لكي ندرك ما هو دمه. إذا أصابنا الصمم، فإننا نحن الذين نجلب هذا على أنفسنا حسبما يعلن النبي : "الخطاة تغربوا من الرحم، ومن الرحم اخطأوا، تكلموا بالكذب، يحل عليهم الغضب كما يحل على الحية، مثل الأصلة الصماء التي لا تسمع صوت الراقيين". ومسئوليتنا نحن عندما نفتح آذاننا للراقيين.

الإنسان الداخلي له أنف يشم به، وبه يميِّز بين الرائحة العطرة من الرائحة الكريهة، الإنسان الداخلي له أنف يجعله يميِّز بين الرائحة الحسنة للبر، ورائحة الخطايا الكريهة. وقد علَّمنا الرسول الرائحة الحلوة، عندما قال :"أنتم رائحة المسيح الذكية لله في كل مكان، عند الذين يخلصون والذين يهلكون، للبعض رائحة موت لموت، وللبعض رائحة حياة لحياة" (٢كو ٢ : ١٥ ــ ١٦). ويقول سليمان في النشيد على فم بنات أورشليم :"في إثرك نسير لرائحة عطرك" (نش ١ : ٤) وكما أننا نميِّز بأنوفنا الرائحة الذكية، من الرائحة الكريهة في عالم المحسوسات، هكذا في الإنسان الداخلي يوجد تمييز بين رائحة البر الذكية التي أشار إليها الرسول، ورائحة الخطايا الكريهة، وهذا لا يحدث إلاَّ للذين حاسة الشم لديهم في صحة جيدة. وما هي رائحة الخطايا الكريهة؟ أليست تلك التي يقول عنها : "جروحي صارت كريهة وعفنة بسبب غباوتي" (مز ٣٧ : ٥).

الإنسان الخارجي له حاسة تذوّق، والإنسان الداخلي له تذوّق روحي، والذي قيل عنه: "ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب" (مز ٣٣ : ٨ ــ ١بط ٢ : ٣).

الإنسان الخارجي له حاسةُ لمسٍ منظورة، والإنسان الداخلي له حاسة لمس، وهي اللمسة التي نالتها المرأة نازفة الدم عندما لمست

هُدب ثوب يسوع (لو ٨ : ٤٥ ــ ٤٦ مر ٥ : ٢٩ ــ ٣٢)، وقد لمست المسيح بحاسة اللمس الروحية، وقد شهد يسوع لهذه الحقيقة بقوله: "مَن لمسني؟"، أمَّا بطرس فقد قال له: الجموع يزاحمونك، وأنت تقول مَن لمسني؟، وقد تصور بطرس أن الذين يزحمون المسيح هم الذين يلمسونه بأيديهم، وليس بحاسة اللمس الروحية. وهكذا يظهر أن الذين يزاحمون يسوع لم يلمسوه في الحقيقة، لأنهم لم يلمسوه بالإيمان. ماعدا المرأة النازفة الدم، التي كان لها اللمسة الإلهية، وهي وحدها التي لمست يسوع، وشفيت. ولأنها لمسته بحاسة اللمس الروحية، خرجت قوة من يسوع عند لمستها الإلهية، ولذلك يقول: " مَن الذي لمسني؟ لأني شعرت أن قوةً خرجت مني". وعن حاسة اللمس الروحية الإلهية، يقول يوحنا: "ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة" (ايو ١ : ١)، وبهذه الصورة يُظهِر لنا أن لدينا أيادٍ، والتي قيل عنها: "رفع يدي ذبيحة مسائية" (مز ١٤ : ٢)، فليس رفع يدي الجسد هو المقصود، ويديّ نفسي مسترخية، وغير مرفوعة بالأعمال الصالحة المقدسة، حتى يتحقق فعلا تقديم الذبيحة المسائية. ولديّ قدمين روحيين،والتي أوصاني سليمان عنها قائلاً :"لا تجعل قدميك تعثران" (أم ٣ : ٢٣).

وفي سفر الجامعة يوجد نص غريب، يبدو وكأنه بلامعنى عند الذي لا يفهم، فعن الإنسان الحكيم يقول سفر الجامعة : "عيني الرجل العاقل في رأسه" (جا ٢ : ١٤)، في أي رأس؟ إن كل إنسان حتى أكثر الناس غباوةً له عينان في رأسه، ولكن الإنسان الحكيم له العينان اللتان تكلمت عنهما سابقاً، واللتان قيل إن الوصية تنيرهما، هاتان العينان في رأس الحكيم، أي المسيح، لأن رأس كل رجل هو المسيح (١كو ١١ : ٣)، كما يقول الرسول، وحاسة الإدراك هي المسيح.

يقول ارميا : ''أحشائي، أحشائي توجعني'' (أر ٤ : ١٩) في أي أحشاء كان ارميا يتألم؟ في هذه الأحشاء التي نشعر نحن فيها ألماً، وهي تلك التي تتمخض وتلد الناس (غل ٤ : ١٩) ، وهذا المقصود بالآم الأحشاء، أي الحواس الروحية، القلب، وليس الحواس الظاهرة.

وحتى الأجزاء غير الظاهرة من الجسد ، لو تأملناها لوجدنا ما يشبهها في النفس، ولكن بصورة غير لحمية طبعا ''يا رب لا توبخني بغضبك، ولا تؤدبني بسخطك، ارحمني يا رب لأني ضعيف، اشفيني يا رب لأن عظامي قد اضطربت'' (مز ٦ : ٢ ــ ٣). وما هي عظام النبي التي اضطربت؟ كيانه الداخلي كله في النفس وثبات عقله، وهو ما يجعله يطلب من الرب أن يشفي هذه العظام، التي قيل عنها : ''عظامنا تبعثرت عند الجحيم'' (مز ١٤٠ : ٧). وماهي العظام التي تبعثرت عند الجحيم؟ الإجابة هي تأملنا الخاطئ وسقوطه تحت سيادة الخطية، وسيادة الموت والشر. وعن هذا الإنسان يمكننا أن نقول إن عظامه تبعثرت. ويقول المزمور أيضاً : ''عظامي كلها تقول يا رب مَن يشبهك؟'' (مز ٣٤ : ١٠). هذه العظام هي التي ترى الله وتتحدث معه، أمَّا العظام المحسوسة، فهي لا تشعر، كما يعلم الذين يعملون في المهن الطبية، ومَن يرى عظاماً لا يقول ''كل عظامي تقول يا رب مَن يشبهك؟ هذه العظام، هي عظام الإنسان الداخلي.

والإنسان الداخلي له قلب، كما هو مكتوب :''اسمعوني يا مَن فقدتم قلوبكم'' (أش ٤٦ : ١٢)، هؤلاء لهم قلوب لحمية كجزء من أجسادهم، لذلك ليس هذا هو الذي فقدوه، ولكن عندما يهمل إنسانُ حياته العقلية، ونتيجةً لهذا الإهمال، تصاب قدرته على التفكير بالشلل ، ويكون كمَن فقد قلبه، وإلى مثل هذا الإنسان قيلت هذه الكلمات : ''اسمعوني يا مَن فقدتم قلوبكم''.

لقد قيل أيضاً :"وحتى شعور رؤوسكم محصاة" (مت ١٠ : ٣)، فالشعور المقصودة هنا هي الفضائل التي تجعل الإنسان نذيرا لله، حسب المعنى الروحي. وهكذا يصبح لدينا كل الأعضاء المحسوسة للجسد المنظور في الإنسان الداخلي، ولذلك لاتشك في أن الدم يختلف عن الأعضاء المحسوسة التي لها ما يقابلها في الإنسان الداخلي، فالدم لا يختلف عن باقي الأعضاء. فالدم، هو قوة الحياة التي تخص الإنسان الداخلي، وهو المقصود أيضاً بالدم الذي تسكبه النفس الخاطئة حسبما قيل :"ودم النفوس أطلبه منكم" (تك ٩ : ٥)، وهو لم يقل "دمكم"، وإنما "دم نفوسكم". ويقول أيضاً: "سوف اطلب دمكم من الرعاة" (حز ٣٣ : ٦). وما هو نوع الدم الذي سيطلبه الله من الرعاة؟ أليس ذلك الذي سيسكب من الخطاة؟ وكما قيل إن قلب الغبي يهلك، وكما أشرنا : "اسمعوني يا مَن فقدتم قلوبكم"، هكذا يقال أيضاً عن الدم، والمقصود هو أن الدم الذي سيسفك هو القوة الحيوية في النفس. وإذا أدرك الذين يسالون عن النفس، أنها تخص الإنسان الداخلي، وأنه في هذا الجانب الخفي توجد "صورة الله"، لفَهمنا المقصود من قول الرسول: "لي اشتهاء أن انطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جداً" (في١ : ٢٣) ، وقبل القيامة الإنسان البار هو مع المسيح، ويحيا مع المسيح في نفسه. ولذلك من الأفضل أن ينطلق الإنسان ليكون مع المسيح. أمَّا الاعتقاد الشائع بان النفس تظل في القبر مع الجسد، لأنها لم تترك الجسد، ولا تستريح في فردوس الله، ولا تستريح في حضن إبراهيم (لو ١٦ ٢٣)، فهذا التعليم الغريب يؤدِّي إلى إنكار أنه ليس من الأفضل أن نموت، وننطلق ونكون مع المسيح؛ لأنه لو كانت النفس في الدم حسب المعنى الحرفي، فإن الإنسان إذا مات لا يكون مع المسيح، بل في القبر، فكيف يقال إنه مع المسيح؟ ولكن حسب اعتقادي،

وحسب كلمة الله، النفس التي تطلب أن تفارق الأتعاب والعرق والجسد، هي التي تستطيع أن تقول :"يا رب أطلق عبدك بسلام" (لو٢ : ٢٩)، لأنها عندما تفارق الجسد تنال السلام وتستريح مع المسيح. وهذا هو ما فهمته نفس إبراهيم "أمَّا أنت فتمضي بسلام مع آبائك بعد شيخوخة صالحة" (تك ١٥ : ١٥). لقد مضى إلى آبائه، أي آباء؟ هم الذين قال عنهم بولس الرسول : "أحني ركبتّي إلى الآب الذي منه تؤخذ كل أبوة" (أف ٣ : ١٤)، ونفس المعنى قيل عن انطلاق هارون (عدد ٢٠ : ٢٩). أيضا قيل في الجامعة عن الإنسان البار الذي جاهد الجهاد الحسن وانحلت قيود جسده، إنه "من بيت الأسرى يخرج ليصير ملكًا" (جا ٤ : ١٤). وهذا هو ما يجعلني أرضى بالموت في سبيل الحق، ومستعد دائمًا لأن أحتقر ذاك الذي يدعى الموت، وإذا احضروا الوحوش، أو الصلبان، والعذابات، فأنا أعلم أنه بمجرد أن أموت، سوف اخرج من الجسد، وأستريح مع المسيح، لذلك علينا أن نجاهد، وأن نصارع، وأن نئن مادمنا في الجسد (٢كو ٥ : ٤، ٢) ليس لأننا سوف نظل في القبر مع الجسد، وإنما لأننا سوف نتحرر من الجسد، وسوف يتحول جسدنا إلى جسدٍ آخر روحاني، فإن كان مصيرنا النهائي هو أن نكون مع المسيح، فكيف لا نئن مادمنا في الجسد؟

هنا دخل الأسقف فيلبس، وجاء أيضاً ديمتريوس، ومعه أسقفاً أخراً، وقال لأوريجينوس : أيها الأخ أوريجينوس علِّمنا عن خلود النفس.

أوريجينوس : إن ملاحظة الآب ديمتريوس سوف تكون بداية مشكلة أخرى. لقد استنتج أننا قلنا إن النفسَ خالدةٌ. وملاحظتي هي أن النفس خالدة ، وميتة. وقبل الإجابة على هذا السؤال، علينا أن نحدد المعاني المختلفة لكلمة الموت. سوف أشرح معانيها

بدون الاستعانة بالفلسفة اليونانية، وإنما معانيها المختلفة الموجودة في الأسفار الإلهية، وربما يوجد مَن هو اعلم مني بالأسفار، فيضيف المعاني الأخرى. في الوقت الحاضر أنا أدرك ثلاثة معاني لكلمة الموت، فما هي هذه المعاني؟ حسب الرسول بولس يمكن أن يحيا الإنسان لله، وأن يموت عن الخطية (رو ٦ : ٢). هذا الموت هو موت مباركٌ حقاً. إنسان يموت عن الخطية، هو الموت الذي ماته ربي، كما هو مكتوب ''وأمَّا الموت الذي ماته فقد ماته للخطية'' (رو٦ : ١٠). ويوجد نوع آخر، وهو الذي قيل عنه إن الإنسان يموت بالنسبة لله، وهو الذي كُتب عنه : ''النفس التي تخطئ تموت'' (حز ١٨ : ٤)، وأعرف نوعاً ثالثاً من الموت، وهو المعنى العام الذي نعرفه جميعا، والذي قيل عنه إن الذين ينفصلون عن الجسد يموتون ''وعاش إبراهيم نحو مائة وثلاثين سنة، ومات'' (تك ٥ : ٥).

فإذا كان لدينا ثلاثة أنواع للموت، أصبح من الضروري أن نبين ما إذا كانت النفس خالدة في ضوء المعاني التي ذكرناها، وهل تنطبق المعاني الثلاثة كلها الخاصة بالموت، أم بعضها فقط.

الموت بالمعنى الأخلاقي، عندما يصاب البشر بالانحلال الأخلاقي، هو موت عام يموته كل البشر، ولكن هذا الموت لا يؤثر على النفس، فهي في هذا المعنى خالدة، وإلاَّ كيف ستُدان بعد الموت؟ وهو ما قيل :''وسيطلب الناس الموت فلا يجدونه'' (رؤ ٩ : ٦)، حسب هذا المعنى النفس خالدة. ولكن في المعنيين الآخرين، نفس كل إنسان ميتة، ومغبوطة إذا ماتت عن الموت. عن هذا الموت تكلم بلعام عندما كان يتنبأ، ويصلي بالوحي ''لتمت نفسي موت الأبرار'' (عدد ٢٣ : ١٠). ويوجد جانب آخر للموت، لا تعتبر النفس فيه خالدة، رغم أننا نملك القدرة والسهر لكي لا نقع فيه. وبالطبع يجوز لنا أن نقول إن ما يمكن أن يموت في النفس، لن يموت

إلى الأبد، وإنما إن أخطأت يتم فيها القول :''النفس التي تخطئ تموت''، وهذا يجعل النفس تموت موتاً حقيقياً، ولكن إن ثبتت في الغبطة تصبح عزيزة على الموت، لأنها نالت الحياة الأبدية، وبنوال الحياة الأبدية لا تصبح النفس قابلة للموت، بل خالدة، ولكن لماذا يقول الرسول عن الله ''الذي له وحده عدم الموت'' (١تي ٦ : ١٦)؟ وبالبحث وجدت أن يسوع مات عن الكل، ولكنه لم يُمت عن الله. وهنا لدينا شرح الكلام كيف أن الله لا يموت.

علينا إذن أن نأخذ الحياة الأبدية، وعلينا أن نأخذها لأنها تعتمد على إرادتنا. فالله لا يعطينا إياها، وإنما يجعلها أمامنا ''أنظر ها قد وضعت الحياة أمام وجهك'' (تث ٣٠ : ١٥) وفي قدرتنا أن نمد أيدينا، ونعمل الأعمال الصالحة، ونتمسك بالحياة الأبدية، ونستودعها في نفوسنا. هذه الحياة الأبدية هي المسيح الذي قال : ''أنا الحياة'' (يو ١١ : ٢٥ ــ ١٤ : ٦). هذه الحياة حاضرةُ الآن في ظلال، ولكن سوف تصبح أمامنا وجهاً لوجه (١كو ١٣ : ١٢). والروح هو وجه المسيح الذي يشرق في الظلال، والذي عنه نقول :''إننا في ظلاله سوف نعيش بين الأمم'' (مراثى ٤ : ٢٠)، وإن كان ظلال الحياة قادراً على أن يعطي لكل واحد منا الكثير من العطايا الصالحة، فهذه الظلال هي رؤية موسى، وأشعياء بشكل خاص عندما رأى رب الجنود جالسا على عرش، وهي نفس الظلال التي كان أرميا يعنيها بقوله :''قبل أن تتكون في البطن عرفتك، وقبل أن تولد من الرحم قدستك''، والتي رآها حزقيال عندما رأى الكاروبيم والعجلات في هذا السر الرهيب (أش ٦ : ١ ــ أر ١ : ٥ ــ حز ١ : ١٥ ــ ١٠ : ١)، فإذا كان الجلال ظاهراً في هذه الظلال، فأي حياةٍ سوف نعيشها عندما لا نعيش في ظلال الحياة، بل في الحياة نفسها. ومن الآن ''حياتنا مستترة مع المسيح، ولكن عندما يظهر المسيح الذي هو حياتنا

سوف نظهر نحن معه في المجد" (كو ٣ : ٣ ــ ٤).

علينا أن نسرع إلى هذه الحياة، نئن مثقلين، لأننا في هذه الخيمة، أي أننا نسكن في الجسد، لأننا مادمنا في الجسد فنحن غرباء عن الرب (٢كو ٥ : ٦ ، ٨). لنشتاق إلى الغربة عن الجسد لكي نكون حاضرين مع الرب، حتى إذا ، صرنا حاضرين عنده، نصبح واحداً مع الله خالق العالم، ومع ابنه الوحيد، فنخلص من كل شيء، ونكون مباركين في يسوع المسيح، الذي له المجد والقوة إلى الأبد آمين.

انتهى حوار أوريجينوس مع هيراقليدس، والأساقفة الذين معه، عن الآب والابن والنفس الإنسانية.

الفصل الرابع

آداب الحوار المسيحي

يبدو أن قضية الإشاعات والأقاويل، قضية قديمة قِدم مصر نفسها، فالعلامة أوريجينوس يُعبَّر عن ألمه الشديد من الذين لا يفهمون، والذين يسيئون استخدام عباراته، ولذلك يضع أول قاعدة للحوار المسيحي، فهو حوار يقف على أرض الحياة الجديدة في المسيح. والذين نالوا الحياة الجديدة، هؤلا ء يمكنهم إدراك أن الحوار يدور حول أسرار تتلقاها النفس من الخبرة اللاهوتية المتكاثرة في الكنيسة. ولكن أوريجينوس الذي يقف على أرض الحياة الجديدة، يدرك أنه معرض لأن يقع تحت طائلة كلمات الدينونة الإلهية، فهو يرمي بالقدسات للكلاب، عندما يعرض أسرار الحياة الجديدة للذين لايفهمون، والذين لايرغبون في الفهم، ''أقول تجددو ا، اطرحوا الشر، الشجار، الغضب، انقسام الرأي.... وأرجو أن لا يحدث بينكم انقسام في المستقبل''، فالكلام ضروري، و الشرح واجب، وإلاَّ سوف يعطي الصمتُ الفرصةَ لأن تصبح ثمار شجرة الحياة من نصيب الحية التي سوف تجعلها مغلفةً بالموت.

الاتهامات سوف تحدث ، سكتنا أم تكلمنا، ونحن لا ندرك قوة صيحة المسيح: ''لا بد من العثرات''، ولكن هناك مبدأ آخر بارز، ألا وهو : إعداد السامعين.

إعداد السامعين

يشرح أوريجينوس العلاقة بين استخدام أسماء الأعضاء الجسدية للحياة الداخلية، لكي يصل من هذ ا إلى الجواب على النقطة المطلوبة ''لقد رأيتم بعد هذه المقدمة الطويلة التي قصدت بها إعداد الذين يسمعونني ... إعداد الكلام بدقة لكي أشفي نفوس الذين يسمعونني''. وغاية الحوار الوصول إلى الوضوح، ولا وضوح بلا حوار.

لكن تظل نقطة الإعداد هذه من النقاط الأساسية التي تحتاج إلى برنامج تربوي ولا هوتي لكي نتجاوز المآسي التي تراكمت.

السلطة الكنسية في حوار

غريب ذلك المنظر، أن يجلس شخص علماني مثل أوريجينوس، لكي يتكلم عن العقيدة في حضور الأساقفة، بل أن يوجه إليه الأسقف سؤالا عن أمور إيمانية أساسية مثل سؤ ال ديمتريوس عن خلود النفس. وهنا الكنيسة القبطية النقية لا تظن إن الرسامة تحجب الأسقف عن الناس، أو تجعل الأسقف هو كل شيء في الكنيسة، أو تنسب إليه العصمة. وطبعا هذ ا المنظر غريب على التراث الغربي كله، وهو منظر الأساقفة والعلمانيين يجلسون للتباحث في أمور العقيدة، ولكن هذا هو الشرق الذي لا يميز بين العلماني و الكاهن في ممارسة الحياة الروحية. وفي مجال الخبرة الروحية، العبرة هي بمن الذي اختبر، وليس من الذي يملك السلطان. وطالما أن العقيدة اختبار، فالاختبار لا ينبع من السلطان، وإنما من الممارسة.

فالأساقفة يسالون، والعلاَّمة يُجيب، وإجابة العلاَّمة تترك الباب مفتوحا للحاضرين للاشتراك في الحوار اللاهوتي، فهو عندما يحدد معاني الموت الثلاثة يطلب من الحاضرين أن يضيفوا ما لايعرفه هو شخصيا.

والباب المفتوح معناه في النهاية أن السلطة الأساسية هي قانون الإ يمان والأسفار المقدسة، فهي التي تحكم على صدق الأمور، وهو موقف السلطة الكنسية التي لاتستطيع أن تكون أعلى من التسليم الرسولي، فهي بذلك تفقد عملها تمامًا، وتتحول إلى مؤسسة أسمى من الكنيسة نفسها.

في لحظة من الحوار بات من الواضح أن قضية خلود النفس، لا يمكن أن تؤخذ من الفلسفة اليونانية التي لا يمكن أن تقبل قول المسيح "أنا هو الحياة"، و إنما تؤخذ القضية بالعودة إلى العقيدة المسيحية بشكل مباشر، وهذا ما فعله أوريجينوس.

المضمون قبل الكلمات

لا يخاف أوريجينوس من الحديث عن إلهين متمايزين، مع وحدة في القوة، ووحدة القوة تعني في تلك الفترة من اللاهوت المسيحي، وحدة الجوهر. فالقوة الإلهية الواحدة لا تصدر إلاَّ عن طبيعة إلهية واحدة. والعلاَّمة لم يستخدم في هذا الحوار لفظة جوهر واحد، وهذا موقف طبيعي، فالفكر المسيحي في القرن الثالث، هو نفسه في القرن الرابع مع تغير في المصطلحات، وهو تغيير يقتضيه الموقف اللاهوتي نفسه، وطبيعة الجدل.

من الخطر الشديد أن نقف عند مصطلحات قرن من القرون، فذلك معناه أننا لم ندرك المضمون بعد، أو أن نتوقف عند لفظة معينة، إلاَّ إذا كانت هذه اللفظة، هي اللفظة الوحيدة التي لا نملك غيرها، مثل ''الواحد مع الآب في الجوهر''، أو ''المساوي للآب في الجوهر''.

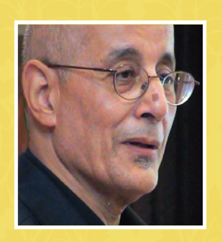
والمضمون قبل الكلمات، اتجاه أنقذ الكنسية الجامعة في القرن الرابع، فمع اشتداد ساعد الأريوسية، وجد اللاتين أنهم لا يملكون في لغتهم لفظة توضح الفرق بين الجوهر والأقنوم. ولكن إيمانهم، أي المضمون كان سليماً، فلم يعلن الشرق، وبشكل خاص أنهم هراطقة، بل أكد سلامة و استقامة إيمانهم. هل كان من الممكن أن نتجاوز هذا المنعطف الخطير بدون العودة إلى المضمون، وهو سلامة الإيمان أولاً، وبعد ذلك الكلمات؟

إن الخطر الشديد الذي يهدد الحوار، هو التمسك بالكلمات قبل البحث عن المضمون المشترك، وهذ ا هو مستوى من الحوار لا يمثل شيئا في الأرثوذكسية ، لأن استيعاب المضمون هو استيعاب التاريخ الكنسي، و استيعاب التاريخ الكنسي معناه الوعي الصحيح بالأرثوذكسية. فاستيعاب المضمون معناه أننا ندرك كيف نعيش في حقبات تاريخنا الطويل، وكيف كنا نميز بين الحرف والروح، فديانةٌ قائمةٌ على الروح لا يمكن أن تستخدم الحرف في قتل أبنائها.

المضمون قبل الكلمات هو مرحلة النضوج الروحي، التي تجعل الذين يعيشون

حقاً الحياة الجديدة، حياة القداسة في المسيح، يتمسكون بالوحدة الكنسية، وهو ما يجعل الصراع ضد سلطان الحرف وقوته هو "حفظ وحدانية الروح برباط الصلح الكامل" راجع أف ٤ : ٣





ليست الهرطقةُ خطأً في التعبير أو في استخدام الكلمات بشكل غير واضح. ولم تكن الهرطقةُ في يوم من الأيام تعبيراً لُغويا، وإنما الهرطقةُ مدرسةٌ فكريةٌ تفسرُ العقيدةَ بشكل خاطئ، مما يؤثر في العقائد الأخرى.

والذين حاولوا تصوير الأريوسية على أنها رفض لكلمة "المساوي، أو الواحد مع الآب في الجوهر"، لم يقرأوا التاريخ الكنسي بدقة، ولم يعرفوا أن تعبير الواحد، أو المساوي للآب في الجوهر، هو أحد المراحل المتأخرة في الصراع اللاهوتي الذي تبلور في المجمع المسكوني الأول ٣٢٥ م.

كما أن أريوس ينكر صراحةً إلوهية الابن، و قال إنه قابل للتغيير، وإنه أقل من الآب، ومخلوق، ومن طبيعة غير طبيعة الآب، وقد جرت مناقشة أريوس في أكثر من مجمع في الإسكندرية، ولم يُحكم عليه إلاَّ بعد أن قال صراحةً بأنه "كان هناك زمنٌ لم يكن فيه الابن موجوداً"، وهي عبارة تعني كلمة واحدة، وهي أن الابن مخلوقٌ.



www.coptology.org

